من لا يمرّ بميقات ولا بما يحاذيه

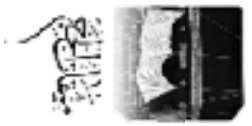

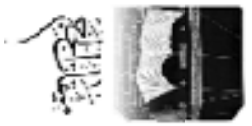

من لا يمرّ بميقات ولا بما يحاذيه

آية الله الشيخ جعفر السبحانى

اتّفقت كلمة الفقهاء على أنّ الآفاقي (النائي) يجب عليه الإحرام لعمرته من أحد المواقيت الخمسة التي وقّتها رسول الله(صلى الله عليه وآله) لمن يمرّ بها[1]، أو ممّا يحاذيها محاذاة عرفيّة، كما إذا كان الحد الفاصل بين الميقات ومهلّه، بضع كيلومترات.

أخرج الكليني بسند صحيح عن عبدالله بن سنان الثقة عن الإمام الصادق(عليه السلام)قال: من أقام بالمدينة شهراً وهو يريد الحجّ، ثمّ بدا له أن يخرج في غير طريق أهل المدينة الذي يأخذونه، فليكن إحرامه من مسيرة ستة أميال فيكون حذاء الشجرة من البيداء[2].

ولعلّ الحدّ الفاصل بين المدينة ومسجد الشجرة يوم ذاك، كان ستة أميال،

(١) الوسائل : ٨، الباب ١ من أبواب المواقيت ، الحديث ، ٢ و ٣ وغيرها.

(٢) الوسائل : ٨، الباب ٧ من أبواب المواقيت ، الحديث ١.

فلذلك أمر الإمام بالإحرام بعد الابتعاد عن المدينة، مقدار ستة أميال، ليكون المهلّ محاذياً للمسجد.

إنّما الكلام إذا ورد عن طريق لا يمرّ بالميقات، ولا بما يحاذيه محاذاة عرفية، فيقع الكلام في مهلِّه.

فإن قلنا بعدم تصور طريق لا يمر بالميقات[1] ولا يكون محاذياً لواحد منها بحجة أنّ المواقيت محيطة بالحرم من الجوانب، وقلنا بكفاية مطلق المحاذاة، وإن كانت عن مسافة بعيدة فيحرم ممّا يحاذي أحد المواقيت.

وأمّا لو قلنا بإمكان طريق لا يمرّ بميقات ولا بما يحاذيه محاذاةً عرفية، عن مسافة قريبة، كما هو الحال في مدينة «جدة» فإنّها ليست بميقات، كما هو واضح، ولا تحاذي أحد المواقيت كالجحفة، محاذاة عرفية[2]، فيقع الكلام فيما هو الواجب على الوافدين إلى جدة جويّاً أو بحريّاً.

والمسألة معنونة في كلمات الفريقين، وهي ذات قوانين منذ عهد بعيد، وإليك البيان:

الآراء في المسألة

قال الغزالي في «الوجيز»: «ولو حاذى ميقاتاً، فميقاته عند المحاذاة، إذ المقصود مقدار البعد عن مكة، وإن جاء من ناحية لم يحاذ ميقاتاً ولا مرّ به،

---

(١) قال المحقّق النراقي : وقد اختلفوا في حكم من سلك طريقاً لا يحاذي شيئاً من المواقيت ، وهو خلاف لافائدة فيه ، إذ المواقيت محيطة بالحرم من الجوانب (المستند : ٢٨٣/١١) وتبعه صاحب العروة الوثقى في مبحث المواقيت ، والتصديق العلمي يحتاج إلى دراسة ميدانية ، وأنّي لنا هذه.

(٢) وأمّا المحاذاة عن مسافة بعيدة ، والتي نسميها محاذاة غير عرفية ، فالظاهر من الخرائط الجغرافية أنّ المطار الحديث للحجاج و ضفاف البحر ، ومقدم الجسر الكبير تحاذي الجحفة ، فإنّ الخط الممتد من الجحفة إلى جدّة يمرّ على هذه الأمكنة أو على مقربة منها.

أحرم من مرحلتين فإنّه أقلّ المواقيت وهو «ذات عرق»».

وقال الرافعي في شرحه: «لو جاء من ناحية لا يحاذي في طريقها ميقاتاً ولا يمرّ به، فعليه أن يحرم إذا لم يبق بينه وبين مكة إلاّ مرحلتان، إذ ليس شيء من المواقيت أقلّ مسافة من هذا القدر».

ثمّ علّق على قول الغزالي في المتن: «فإنّه أقلّ المواقيت وهو ذات عرق» إنّما كان يحسب أن لو كانت ذات عرق أقلّ مسافة من كلّ ما سواها من المواقيت، لكن قد مرّ أنّ ذات عرق مع يلملم وقرن، متساوية في المسافة[1].

وقال محي الدين النووي: وأمّا إذا أتى من ناحية ولم يمرّ بميقات ولا ما حاذاه، فقال أصحابنا: لزمه أن يُحرم على مرحلتين من مكة، اعتباراً بفعل عمر في توقيته ذات عرق[2].

والظاهر أنّ فقهاء السنّة على قول واحد، وهو الإحرام على مرحلتين من مكة، تمسّكاً بما فعله عمر حيث جعل ذات عرق ميقاتاً، لأنّه على مرحلتين من مكة، مثل قرن المنازل ويلملم.

ولكن الثابت عندنا أنّ رسول الله نصّ على كون «ذات عرق» ميقاتاً[3].

وما ذكره الغزالي من الوجه من أنّ المقصود الابتعاد بمقدار المرحلتين أو أزيد، فيكفي الإحرام من هذا المقدار من البعد، استحسان لا دليل عليه، ولا ينفي لزوم العود إلى الميقات، ولا لزوم الإحرام من مقدار أبعد المواقيت إذا لم يجاوزه ولم يكن محاذياً.

أضف إلى ذلك: أنّ ما دلّ على الابتعاد بهذا المقدار من المسافة، إنّما دلّ إذا أحرم من الميقات، لا مطلقاً وإن لم يمرّ على ميقات.

---

(١) العزيز في شرح الوجيز المعروف بالشرح الكبير للرافعي ٣: ٢٢٥ ـ ٣٣٦

(٢) المجموع ٧: ٢٠٣، وهو شرح للمهذب للشيرازي.

(٣) الوسائل: ٨، الباب ١ من أبواب الميقات، الحديث ٢.

وأمّا فقهاؤنا فلهم قولان:

١. الإحرام من مرحلتين من مكة

إذا سلك طريقاً لا يمرّ فيه على هذه المواقيت ولا يكون محاذياً فقد اختار ابن الجنيد ما حكيناه عن فقهاء السنة في أنّه يحرم من مكة بقدر أقرب المواقيت إليها فيحرم منه[١].

وذكر الشهيد الثاني في وجهه: أنّ هذه المسافة لا يجوز لأحد قطعها إلاّ محرماً من أيّ جهة دخل، وإنّما الاختلاف يقع في ما زاد عليها، فهي قدر متفق عليه[٢] وفي «المدارك» قريب ممّا ذكره والده في المسالك[٣].

يلاحظ عليه:

أولاً: إنّ ما ذكره ليس مبرّراً للإحرام من هذه المسافة، إذ لماذا لا يعود إلى الميقات؟! وقد عرفت أنّ ما ذكره من أنّه لا يجوز قطع هذه المسافة، بلا إحرام إنّما هو فيما إذا أحرم من الميقات لا مطلقاً، فلا دليل على لزوم الإحرام في قطع المرحلتين إذا أحرم من غير المواقيت المنصوصة كما سيأتي.

وثانياً: الإحرام من أدنى الحل

وهناك وجه آخر، وهو الإحرام من أدنى الحل، من غير فرق بين الجعرانة، أو الحديبية، أو التنعيم، وإن كان الثالث أقرب إلى مكة، فقد ذكره العلاّمة في عدّة من كتبه، والشهيد الثاني في «المسالك»، واستحسنه في «المدارك». وإليك بعض الكلمات:

١. قال العلاّمة في «القواعد»: «ولو لم يؤدّ إلى المحاذاة فالأقرب إنشاء

---

(١) المختلف ٤ : ٤٣.

(٢) المسالك ٢ : ٢١٦.

(٣) المدارك ٧ : ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

الإحرام من أدنى الحلّ، ويحتمل مساواة أقرب المواقيت».[1]

٢. وقال فخر المحقّقين معلّقاً على قول والده في القواعد: «وجه القرب أنّه ميقات للمضطرين، كالناسي، وهذا الّذي حجّ على طريق لا يؤدي إلى ميقات ولا إلى محاذاته منهم، لتعذر الميقات، وهو الأقوى عندي.

ووجه الثاني: أنّ الاعتبار بالمحاذاة إنّما هو المساواة»[2].

٣. وقال في «التذكرة»: «ولو مرّ على طريق لم يحاذ ميقاتاً ولا جاز به، قال بعض الجمهور: يحرم من مرحلتين، فإنّه أقلّ المواقيت وهو ذات عرق، ويحتمل أن يحرم من أدنى الحلّ»[3].

٤. وقال في «التحرير»: «ولو مرّ على طريق لا يحاذي ميقاتاً، فالأقرب الإحرام من أدنى الحلّ»[4].

٥. وقال الشهيد الثاني في «المسالك»: «موضع الخلاف ما لو لم يحاذ ميقاتاً فإنّه يحرم عند محاذاته ـ إلى أن قال: ـ والوجه الآخر أن يحرم من أدنى الحلّ، عملاً بأصالة البراءة من الزائد»[5].

٦. وقال في «المدارك»: «واستقرب العلاّمة في القواعد، وولده في الشرح: وجوب الإحرام من أدنى الحل، وهو حسن، لأصالة البراءة من وجوب الزائد.

وقولهم: إنّ هذه المسافة لا يجوز قطعها إلاّ محرماً في موضع المنع، لأنّ ذلك إنّما ثبت مع المرور على الميقات لا مطلقاً، بل لولا ورود الرواية

---

(١) القواعد ١ : ٤١٧.

(٢) الإيضاح ١ : ٢٨٤.

(٣) التذكرة ٧ : ٢٠٤.

(٤) التحرير : ٥٦٥/١.

(٥) المسالك ٢ : ٢١٦ ـ ٢١٧.

بوجوب الإحرام من محاذاة الميقات (يشير إلى صحيحة عبدالله بن سنان الواردة في القريب لا البعيد) لأمكن المناقشة فيه بمثل ما ذكرناه»[1].

٧. وقال في «الرياض»: «ولو لم يحاذ شيئاً منها، قيل: يحرم من مساواة أقربها إلى مكة، وهو مرحلتان تقريباً، لأنّ هذه المسافة لا يجوز لأحد قطعها إلاّ محرماً، وقيل: من أدنى الحل، لأصالة البراءة من وجوب الزائد»[2].

٨. قال النراقي: «ولو فرض إمكان (سلوك طريق لا يحاذي شيئاً من المواقيت)، فالمختار الإحرام من أدنى الحلّ، لأصالة البراءة عن الزائد»[3].

٩. وقال في «الجواهر»: «لو سلك طريقاً لم يكن فيه محاذاة ميقات من المواقيت، وإن كان قد عرفت فيه الاحتمالين بل القولين: الإحرام من مقدار أقرب المواقيت أو من أدنى الحلّ»[4].

١٠ ـ وقد كانت المسألة ذات قولين إلى أن أفتى السيد الحكيم بتعين الإحرام من أدنى الحلّ، وعلى ذلك طبّق عمله عند تشرّفه بالحجّ.

وقد نبّه إلى ذلك نجله الشهيد السيد محمدباقر الحكيم في شرح والده ـ عند ذكر بعض فتاواه الحديثة ـ وقال: ومنها:

الفتوى بكفاية الإحرام من حدود الحرم وأدنى الحل للحجاج الذين يأتون من الآفاق، ممّن لا يمرّون في طريقهم بأحد المواقيت الخمسة المعروفة، أو ما يحاذيها محاذاة عرفية، كالحجاج الذين يأتون إلى جدة بالطائرات، وكذلك صحّة الإحرام من هذا الموقع للمعتمر بالعمرة المفردة.

حيث كان يستفيد من روايات المواقيت أنّها مختصّة بمن يمرّ عليها أو

---

(١) المدارك ٧ : ٢٢٤.

(٢) رياض المسائل ٦ : ١٩٥.

(٣) مستند الشيعة ١١ : ١٨٩.

(٤) الجواهر ١٨ : ١١٨.

يحاذيها محاذاة عرفية، وهى المحاذاة الّتي يمرّ فيها الحاج قريباً من الميقات في حالة استقباله لمكة، وبدون ذلك لا تكون هذه محاذاةً ولا مروراً بالميقات، وبالتالي فيمكنهم أن يحرموا من أدنى الحلّ.

ومع قطع النظر عن صحّة هذا الاستنباط وعدمه فإنّ ذلك موكول للأبحاث الفقهية، ولكن المهم هو الشجاعة والجرأة الأدبية لهذه الفتوى، والّتي عالج بها مشكلة حقيقية يعاني منها الحجاج استناداً لفهمه من النصوص[1].

تعيّن القول الثاني:

إنّ الّذي يحثّ الفقيه على الخوض في هذه المسألة أنّها ممّا يُبتلى به من قبل الكثير من الحجاج، حيث إنّ الذين يقصدون الحجّ من بلدان بعيدة على أقسام:

١. قسم منهم ينزلون مطار المدينة المنورة ويحرمون من ذي الحليفة، وهذا من أفضل وجوه الحجّ.

٢. قسم آخر ينزلون مطار جدّة ويذهبون إلى المدينة شوقاً إلى زيارة النبي(صلى الله عليه وآله)، ويحرمون من ذي الحليفة أيضاً.

(١) دليل الناسك ٦٧ ـ ٦٨.

٣. قسم منهم ينزلون مطار الجحفة ويحرمون منها.

إنّما الكلام في القسم الأخير.

٤. من ينزل مطار جدّة، ولا يتمكّن من الذهاب إلى المدينة، ويشق عليه الذهاب إلى الجحفة إمّا لضيق الوقت أو لا يريده طلباً للراحة.

فالقسم الرابع هو أكثر ما يبتلي الحجاج به، فأمام هؤلاء الطرق التالية:

١. إلزامهم بالذهاب إلى أحد المواقيت، كالجحفة أو قرن المنازل أو غيرهما.

٢. الإحرام من مرحلتين من مكة.

٣. الإحرام من أدنى الحلّ.

أمّا الأوّل: فلا دليل على الإلزام، فإنّ ما ورد من الروايات من أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله)قد وقّت لأهل المدينة ذا الحليفة، ووقّت لأهل الشام الجحفة، ووقّت لأهل نجد العقيق، ووقّت لأهل الطائف قرن المنازل، ووقّت لأهل اليمن يلملم[1]، كلّ ذلك راجع إلى من كان أهل هذه المواقيت أو كان ممّن يجتازها، وأمّا من سلك طريقاً لا يؤدي إلى أحد هذه المواقيت فلا يوجد أيّ دليل على إلزامه بالعود إلى المواقيت.

وأمّا الثاني: وهو الإحرام من مرحلتين من مكة بحجة أنّه لا يجوز لأحد أن يجتازها بلا إحرام، فقد مرّ فيه الإشكال بأنّه راجع لمن حضر أحد هذه المواقيت فلا يجوز له قطع المرحلتين على الأقلّ بلا إحرام، وأمّا من ليس من أهلها ولا مجتازاً فلا دليل على أنّها بالنسبة إليه ميقات.

فتعيّن هنا الطريق الثالث: ويشهد له ـ مضافاً إلى كونه المحتمل الذي ليس وراؤه احتمال آخر ـ الأُمور التالية:

(١) الوسائل : ٨، الباب ١ من أبواب المواقيت ، الحديث ٣ وغيره.

١. إنّ أدنى الحلّ ميقات العمرة المفردة، للقارن والمفرد ولكلّ من يقوم بعمرة مفردة.

٢. إنّها ميقات من نسي الإحرام أو جهل بحكمه، فإنّه يحرم من أدنى الحلّ، فإن تعذر فمن مكانه، ففي صحيحة عبدالله بن سنان قال: سألت أبا عبدالله(عليه السلام) عن رجل مرّ على الوقت الّذي يحرم الناس منه فنسي أو جهل فلم يحرم حتّى أتى مكة، فخاف إن رجع إلى الوقت أن يفوته الحجّ؟ فقال: «يخرج من الحرم ويحرم ويجزيه ذلك»[1].

٣. إنّها ميقات المقيم بمكة ما لم تمض عليه سنتان، فإنّه يخرج إلى أحد المواقيت إذا لزمه التمتع، ومع التعذّر إلى أدنى الحلّ.

وهذه الوجوه وما يقاربها تشرف الفقيه على القول بكفاية الإحرام من أدنى الحلّ بلا حاجة إلى العود إلى المواقيت.

ويجب أن نذكر أنّ هناك مشكلة أُخرى تتعلّق بمسألة وجوب ترك التظليل ليلاً كالنهار عند جماعة من الفقهاء، خصوصاً إذا كانت الليلة مطيرة، أو ذات رياح شديدة، فقد ذكروا ترك التظليل من تروك الإحرام، هذا من جانب، ومن جانب آخر إنّ السيارات المكشوفة غير متوفرة، والمتوفرة لاستهلاكها، خطرة على حياة الحجاج، حينما يستقلونها من المدينة إلى مكة، فإنّ ركوبها وإن كان يسهّل الأمر من جهة ترك التظليل، لكن ركوبها، لا يخلو من نظر كما شاهدناه بأم أعيننا.

وهذا بخلاف مالو جاز لهم الإحرام من أدنى الحلّ، حيث إنّ المسافة بين الحديبية أو التنعيم ومكة قريبة جدّاً، فيمكن اتّخاذ سيارات مكشوفة تسير هذه المسافة القصيرة.

---

(١) الوسائل : ٨، الباب ١٤ من أبواب المواقيت ، الحديث ٢.

والأفضل حسب الظروف الحاليّة الإحرام من الحديبية لمن يصلها عبرأحد الطريقين القديم أو الجديد، حيث تتوفر فيها الحمامات بوفرة لجميع الحجاج نساءً ورجالاً، وهذا ما شاهدته بأُمّ عيني في سفري الأخير لأداء العمرة المفردة عام ١٤٢٤ هـ. ق.

دراسة فتوى السيد الخوئي(قدس سره)

ثمّ إنّ السيد الخوئي ـ رضوان الله عليه ـ أفتى في الموضوع بالأمور التالية:

١. لزوم الذهاب إلى أحد المواقيت مع الإمكان.

٢. أو نذر الإحرام من بلده أو من الطريق قبل الوصول إلى جدّة بمقدار معتد به، ولو في الظاهر فيُحرم من محل نذره.

٣. الذهاب إلى ـ رابغ ـ الذي هو في طريق المدينة والإحرام منه بنذر، باعتبار أنّه قبل الجحفة التي هي أحد المواقيت.

٤. إذا لم يمكن المضي إلى أحد المواقيت ولم يحرم قبل ذلك بنذر، لزمه الإحرام من جدة بالنذر، ثمّ يجدد إحرامه خارج الحرم قبل دخوله فيه[1].

ويلاحظ على ما أفاده بأُمور:

أوّلاً: إنّ إلزام الذهاب إلى أحد المواقيت مع الإمكان بلا ملزم، لما مرّ من أنّ الروايات الدالة على لزوم الإحرام من المواقيت التي وقّتها رسول الله(صلى الله عليه وآله) ناظرة إلى من كان من أهل هذه المواقيت أو كان ممن يجتازها، وأمّا من سلك طريقاً لا يؤدّي إلى أحدها فلا دليل على لزوم الذهاب إلى المواقيت.

(١) المعتمد ٣ : ٣٢٤ ، ولاحظ المناسك.

ثانياً: إنّ نذر الإحرام من بلده أو من الطريق قبل الوصول بمقدار معتد به أو في الطائرة، وإن كان يحلُّ مشكلة إحرام، لكن يبقى الإشكال في الاستظلال بعده بسقف الطائرة ونحوها إذا كان الطيران في النهار أو في الليالي الممطرة أو ذات الرياح العاصفة.

وجه الإشكال، إنّ حقيقة الإحرام عبارة عن العزم على ترك المحرمات فكيف يجتمع ذلك العزم الجدي، مع العلم بنقضه في الطريق أو قبل ركوب الطائرة، ونحو ذلك، وهذه مشكلة يجب التخلص منها على نحو لا يصادم حقيقة الإحرام الذي هو أمر قلبي قائم بالجزم والنية.

أضف إلى ذلك أنّ هذا الاقتراح، لا ينفك عن وجوب الفدية عليه، وهو تكليف زائد وتحميل عليه وهو رهن الدليل.

ثالثاً: إنّه إذا تمكن من الذهاب إلى رابغ يتمكن غالباً من الذهاب إلى الجحفة، فإنّها بمقربة من رابغ، والطريق، معبّد، ذلول، والمسافة قليلة جداً.

رابعاً: إذا لم يمكن المضيّ إلى أحد المواقيت ولم يحرم قبل ذلك بنذر، فقد أفتى بلزوم الإحرام من جدة بالنذر، ثمّ يجدد إحرامه خارج الحرم قبل دخوله فيه.

ولم يعلم وجهه، لأنّ المورد خارج عن مصب روايات النذر، لأنّ مورد رواياته[1] هو نذر الإحرام قبل الميقات، ثمّ اجتيازه والمرور به، وأين هو من المفروض، وهو نذر الإحرام قبل الدخول في الحرم ثمّ الدخول فيه مُحْرماً، وقد ثبت في محله أنّه لا يمكن تحليل الحرام ـ تكليفاً أو وضعاً ـ بالنذر واليمين والعهد، والإحرام قبل الميقات، أو بعده حرام تكليفاً وباطل وضعاً،

(١) الوسائل : ٨، الباب ١٢ من أبواب المواقيت ، الحديث ١ ـ ٣.

خرجت منه صورة واحدة، وهو نذره قبل الميقات، ثمّ المرور به محرماً، والصور الأُخرى باقية تحت المنع.

الحج رموز، وحكم

آية الله عبدالله جوادى آملى ـ ترجمة : حيدر حبّ الله

لابدّ لكلّ إنسان من دين إلهي، ولا دين كذلك سوى الإسلام {**إنّ الدين عند الله الإسلام**}[1]، كما لا يُقبل دين عداه، {**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**}[2]، فالإسلام هو الدين الوحيد الجامع النازل من جانب الحقّ تعالى، والمشتمل على تمام الكمالات الإنسانيّة، والمهيمن على الأديان الباطلة كافّة، وهو الديانة الفريدة القابلة للإجراء والتطبيق لتكون مورداً لاستفادة الإنسان.

وبناءً عليه، لابد لهذا الدين أن يحوي برامج وآليات يمكن توظيفها والاستفادة منها عبر التاريخ، وتظهر وتنجلي في مناخ تعالي الإنسانيّة انجلاءً كاملاً وتاماً.

الشمولية والدوام من أكبر أوصاف الإسلام وأهمّها، أي إنّه يستوعب في

(١) آل عمران : ١٩ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

داخله أفراد الإنسان كافّة من السود والبيض والحمر وسائر الأعراق و... كما يستوعب امتداد الزمان، في ماضيه ومستقبله، إلى يوم القيامة.

وللإسلام، بوصفه أمراً إلهيّاً غالباً على الزمان والحركة والمادّة مصوناً من الزوال والاندثار، علّةٌ تامّة مثله في ذلك مثل سائر الممكنات، وهذه العلّة التامّة مكوّنةٌ من علّتين إحداهما العلّة الفاعلة والأخرى العلّة القابلة، فالعلّة القابلة للإسلام هي الإنسان نفسه، والإنسان إنسان لا يتغيّر ولا يتبدّل بما جبل عليه من الفطرة الخاصّة والطينة المخصوصة {**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**}[1]. وأمّا العلّة الفاعلة له فهي الله الذي لا تناله يد التغييرات ولا تحظي بكرامته شباك التحوّلات، فإنّ ذاته منبع الحياة والنور والعلم والقدرة، ولا سبيل فيها أبداً للموت والظلمة والجهل والاعترال، فهي الذات العليمة ـ إذن ـ بمصالح الإنسان ومفاسده، والأقدر على تعليمه وهدايته إلى المدارج الرفيعة وتحذيره من السقوط في المهاوي السحيقة، وتبيين درجاتها والإعلام بدركاتها.

على هذا الأساس، فإنّ سرّ عالميّة الإسلام يكمن في:

أوّلاً: إنّ نزوله كان لتفتيح براعم الفطرة الإنسانيّة، تلك الفطرة التي لا ترتهن لأرض خاصّة ولا لتاريخ معيّن، كما لا مسير زمنيّ لها، بل لا تنالها التأثيرات العرقيّة والقوميّة ولا الظواهر الجغرافيّة، ومن هنا تمثل البنية التحتيّة الراسخة للتربية، والأساس المحكم للإرشاد والتعليم.

ثانياً: إنّ معلّم الإنسان ومربّي البشريّة هو الإله الذي لا رخصة للجهل في الولوج إلى حريم علمه المطلق اللامتناهي، ولا فسحة للسهو والنسيان إلى حرم أمن حضوره وشهوده الدائم. من هنا كان الدين المرضيّ عنده هو

(١) الروم : ٣٠.

الأساس الثابت والبناء الدائم الذي لا يعرف الزوال في هداية المجتمعات الإنسانيّة جمعاء.

الحجّ النيابي

محسن الأسدى

حظيت فريضة الحج بمكانة كبيرة في الشريعة الإسلامية المباركة، في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله‘ وأحاديث و أقوال أئمة أهل بيت العصمة والطهارة^، وكذلك في آراء أئمة المذاهب الإسلامية وأقوال فقهائها وعلمائها، كما نالت اهتمام المسلمين قاطبة، فراحوا يؤُمّون ديار الله المقدسة في مكة، لأداء مناسك هذه الفريضة المقدسة، تلبيةً للأذان الأول الذي رفعه نبيّ الله إبراهيم الخليل عليه السلام بأمر من السماء: {**وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتين في كلّ فجّ عميق ليشهدوا منافع لهم و يذكروا اسم الله في أيّام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق**}[1].

ليحققوا هذه الأهداف الكبيرة في موسم معين وفي مكان أو أماكن محدّدة،

(١) الحج: ٢٧-٢٩ .

وليؤدّوا فريضةً عظيمةً أرادتها السماء وفرضتها عليهم وألزمتهم بعدم التخلف عنها، {**لله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً**}[1].

فالحجّ ركن من أركان الدين، وفرع في الفروع الواجبة وضرورة وعبادة اتفقت على وجوبها ووجوب أدائها الفرق الإسلامية كافّة، وجعلت من ينكرها أو يتعمد التخلف عن أدائها، مع توفر الشروط فيه، داخلاً تحت {**ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين**}[2].

ونظراً للمنزلة العظيمة لهذه الفريضة ولمناسكها، ولرغبة السماء في أن لا يخلو هذا البيت المبارك والبقاع المباركة من أدائها، فتحت لذوي الأعذار ـ وحتى للأموات ـ من المؤمنين باباً آخر لأداء هذه الفريضة، فالشريعة راحت تلاحق أصحاب الأعذار والذين يعجزون عن أداء مناسك هذه الفريضة بسبب الأمراض وغيرها مع توفر الاستطاعة المالية لهم، بل ولاحقت حتى الذين يتوفون منهم ولم يكن بمقدورهم أداؤها أو أنّهم تخلّفوا عنها أو عن بعض مناسكها بعذر أو بغير عذر، فتحت لكلّ هؤلاء ـ رجالاً ونساء وخناثي ـ باباً سمّته باب النيابة، وأمرتهم بأن ينيبوا من يؤدّي عنهم هذه الفريضة، وجعلت ثواباً عظيماً للنائب تشجيعاً له، وأنّها إذا ما أُدّيت صحيحةً بشروطها وأحكامها من قبل النائب، تكون مجزية عن الأصيل (المنوب عنه)، ولا تفرغ ذمته إلاّ بأدائها مادامت الاستطاعة قد تحققت عنده.

وللنيابة أحكامها وشروطها و مشروعيتها، هذا ما تناولته الأحاديث الشريفة لرسول الله ‘ ولأئمة أهل البيت^ ونقلته ألسنة الصحابة والتابعين، واكتظّت بها كتبُ الفريقين (الإمامية وأهل السنة) وأعلنت على أساسها

(١) آل عمران:٩٧ (وأتموا الحجّ والعمرة لله) .

(٢) آل عمران: ٩٧ .

آراؤهم الفقهية وأقوالهم في مشروعيتها وما يترتب عليها من أحكام وآداب... وهانحن في مقالتنا هذه نتعرّض إلى فضلها وثوابها، وأدلة مشروعيتها، وشيء من أحكامها عند المذاهب الإسلامية، آملين أن يكون هذا البحث مختصراً نافعاً قدر الإمكان، مستفيداً فيه مما تيسّر لي من مصادر الحديث والفقه.

وقبل أن نبدأ الكلام عن النيابة، مشروعيّتها، شروطها، أحكامها، نذكر فضل الحج نيابةً، و ماجاء فيه من أحاديث مباركة تدعو إليه وتحضّ عليه وتبين ثوابه، وما أعدّه الله تعالى للعاملين في هذا الخصوص.

ـ فعن رسول الله ‘: إنّ الله عزّوجلّ يدخل بالحجة الواحدة ثلاثة نفر الجنة: الميت، والحاجّ عنه، والمنفذ ذلك.

ـ وعنه ‘: حجّة للميت ثلاثة: حجّة للمحجوج عنه، وحجّة للحاج، و

حجّة للموصي.

ـ وعنه ‘: من حجّ عن ميت كتبت عن الميت و كتب للحاجّ براءةٌ من النار.

ـ وعن ابن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام: قلت له: الرجل يحجّ عن آخر، ماله من الأجر والثواب؟

قال: للذي يحجّ عن رجل أجر وثواب عشر حجج.

ـ وعن الفضل بن شاذان الهروي: ذُكر لي كثرة ما يحجّ المحمودي ـ وهو من أصحاب الأئمة ـ فسألته عن مبلغ حجّاته، فلم يخبرني بمبلغها، وقال: رزقت خيراً كثيراً والحمد لله.

قلت له: فتحجّ عن نفسك أو عن غيرك؟

فقال: عن غيري، بعد حجّة الإسلام أحجّ عن رسول الله‘، وأجعل ما أجازني الله عليه لأولياء الله، وأهب ما أثاب على ذلك للمؤمنين و المؤمنات.

قلت: فما تقول في حجّك؟

فقال: أقول: اللهم إني أهللت لرسولك محمّد ‘ وجعلت جزائي منك ومنه لأوليائك الطاهرين^، ووهبت ثوابي لعبادك المؤمنين والمؤمنات بكتابك وسنة نبيك ‘.

ـ وعن عبدالرحمن بن سنان: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام إذ دخل عليه رجل، فأعطاه ثلاثين ديناراً يحجّ بها عن إسماعيل، ولم يترك شيئاً من العمرة إلى الحج إلاّ اشترطه عليه، حتى اشترط عليه أن يسعى عن وادي محسّر، ثمّ قال: يا هذا، إذا أنت فعلت هذا كان لإسماعيل حجّة بما أنفق من ماله، وكان لك تسع بما أتعبت من بدنك.

ـ الشيخ الصدوق: سئل الصادق عليه السلام عن الرجل يحجّ عن آخر، أله من الأجر والثواب شيء؟

فقال: للذي يحجّ عن الرجل أجر وثواب عشر حجج، و يغفرله ولأبيه ولأمّه ولابنه ولابنته ولأخيه ولأخته ولعمّه ولعمّته ولخاله ولخالته، إنّ الله واسع كريم.

بعد هذا، ننتقل إلى معرفة آراء فقهاء المسلمين من الفريقين، وما توفر لدى الفريقين من أحاديث استندت عليها أقوالهم:

الإمامية

ذهب فقهاء الإمامية إلى أنّه لا إشكال في صحّة النيابة:

أ ـ عن الميت في الحج الواجب و المندوب، بضرورة من المذهب إن لم تكن من الدّين، ولنصوص مستفيضة نأتي على ذكر بعضها.

ب ـ عن الحيّ في الحجّ المندوب مطلقاً، وفي الواجب في بعض الصور، وتتخذ النيابة مشروعيتها من الإجماع، والنصوص الحديثية المستفيضة التي نذكر بعضها:

روي عن عاصم بن حميد، عن محمّد بن مسلم أنّه قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن رجل مات ولم يحج حجّة الإسلام، ولم يوص بها، أيقضي عنه؟

قال: نعم».

وروي عن معاوية بن عمار أنّه قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن امرأة أوصت بمال في الصدقة والحجّ والعتق.

فقال: إبدأ بالحجّ فإنّه مفروض، فإن بقي شيء، فاجعل في الصدقة طائفة، وفي العتق طائفة».

وروي عن هارون بن حمزة الغنويّ عن أبي عبدالله عليه السلام: «في رجل مات ولم يحجّ حجّة الإسلام، ولم يترك إلاّ قدر نفقة الحج وله ورثة.

قال: هم أحقّ بميراثه إن شاؤوا أكلوا، وإن شاؤوا حجّوا عنه».

وروي عن حارث بياع الأنماط أنّه: سئل أبو عبدالله عليه السلام: «عن رجل أوصى بحجّة، فقال: إن كان صرورة، فهي من صلب ماله إنما هي دَين عليه، و إن كان قد حجّ، فهي من الثلث».

وعن رجل يموت في طريق الحج، روى عليّ بن رئاب عن ضريس عن أبي جعفر عليه السلام: «في رجل خرج حاجّاً حجّة الإسلام فمات في الطريق.

فقال: إن مات في الحرم، أجزأت عنه حجّة الإسلام، وإن كان مات دون الحرم، فليقض عنه وليّه حجّة الإسلام».

وفي رواية أخرى عن عليّ بن رئاب عن بريد العجليّ بهذا المورد، قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن رجل خرج حاجّاً، ومعه جمل له ونفقة وزاد، فمات في الطريق.

قال: إن كان صرورة ثمّ مات في الحرم، فقد أجزأت عنه حجة الإسلام، وإن كان مات وهو صرورة قبل أن يحرم، جعل جمله وزاده ونفقته وما معه في حجّة الإسلام، فإن فضل من ذلك شيء فهو للورثة إن لم يكن عليه دَين.

قلت: أرأيت إن كانت الحجّة تطوّعاً، ثمّ مات في الطريق قبل أن يحرم، لمن يكون حجّه ونفقته وما معه؟

قال: يكون جميع ما معه وماترك للورثة، إلاّ أن يكون عليه دَين فيقضى عنه، أو يكون أوصى بوصية فينفذ ذلك لمن أوصى له، ويجعل ذلك من ثلثه».

وسئل أبوعبدالله عليه السلام «عن رجل مات وله ابن فلم يدر حجّ أبوه أم لا؟

قال: يحجّ عنه، فإن كان أبوه قد حجّ، كتب لأبيه نافلة وللابن فريضة، وإن لم يكن حجّ أبوه، كتب لأبيه فريضة وللابن نافلة»[1].

وفي صحيح ابن عيسى قال: «بعث إليّ أبوالحسن الرضا عليه السلام رزم ثياب،

(١) انظر من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ٢: ٢٨٠ـ٢٨٤ ، وسائل الشيعة ، باب ٣٤ من أبواب نيابة الحج .

وغلماناً، وحجّة لي، وحجّة لأخي موسى بن عبيد، وحجّة ليونس بن عبدالرحمن، وأمرنا أن نحجّ عنه، فكانت بيننا مائة دينار أثلاثاً فيما بيننا».

إلى غيرها من الروايات التي ستأتينا طيّ البحث.

هذا وتصحّ النيابة هذه بأمور:

١ – التبرع.

٢ – الإجارة.

٣ – الجُعالة.

لظهور الإطلاق ـ كما يقول السيد السبزواري +ـ والاتفاق، وأنّ المدار على إتيان العمل بأيّ وجه حصل، وأنّ ذمة الأصيل (المنوب عنه) لا تفرغ إلا بإتيان النائب للعمل صحيحاً، وهو ما تقتضيه قاعدة أنّ الاشتغال اليقيني يقتضي الفراغ اليقيني، فإذا كان على الميت حجّ واجب، واستؤجر شخص لأدائه، فلا تبرأ ذمة الميت بمجرّد ذلك، وإنما ترتبط براءة ذمته بأداء الأجير للحج على الوجه الصحيح، و كذلك الحال في الحي الذي وجب عليه أن يستنيب شخصاً ليحج عنه.

وعلى هذا الأساس، لابدّ أن يكون الأجير مأموناً على أداء الحج، و التعرف على واجباته وأحكامه، وجديراً بالثقة والاعتماد، وإن كان عادلاً ـ إضافة إلى وثاقته ومعرفته ـ فهو أحسن وأفضل، كما يقول السيد الشهيد الصدر رضوان الله عليه.

شروط النائب

ذكر الفقهاء شروطاً يجب توفرها في النائب ـ سواء أكان متبرعاً بالنيابة عن الأصيل أم كان مستأجراً من قبله ـ فإذا لم تتوفر هذه الشروط في النائب لا يصحّ حجّه وهي:

الأول: البلوغ، فلا يجزي حجّ الصبيّ ـ ولوكان مميزاً ـ عن غيره في حجّة الإسلام وغيرها من الحج الواجب، وتصحّ نيابة الصبي المميز عن غيره في الحج المندوب إذا أذن له الولي به.

الثاني: العقل، فلا تصحّ نيابة المجنون الذي لا يتحقق منه القصد بالضرورة بين الفقهاء، بل العقلاء؛ لعدم اعتماد الجميع على أفعال المجانين، خصوصاً في مثل هذا العمل الذي له أحكام كثيرة و موضوعات مختلفة. ولا فرق في كون جنونه مطبقاً ـ أي مستمراً ـ أو أدوارياً ـ أي الذي يصاب بالجنون أحياناً ـ إذا كان العمل في حالة جنونه، وأما السفيه فلا بأس باستنابته.

الثالث: الإيمان، لعدم صحّة عمل غير المؤمن.

الرابع: عدم اشتغال ذمة النائب بحجّ واجب عليه في ذلك العام، فلا تصحّ نيابة من وجب عليه حجة الإسلام، أو النذر الضيق مع تمكنه من إتيانه، و أما مع عدم تمكنه لعدم وجود المال، فلا بأس.

فلو حجّ عن غيره مع تمكنه من الحج لنفسه بطل على المشهور، وإن

ذهب بعضهم إلى أنّ هذا الشرط إنما هو لصحة الاستنابة والإجارة، وإلاّ فالحج صحيح، وإن لم يستحق الأجرة، وتبرء ذمة المنوب عنه على ما هو الأقوى. فيما ذهب بعض آخر إلى أنّ هذا الإنسان المكلف بالحج في سنة النيابة لم يجز له إهمال ماهو واجب عليه من أجل أن يحج نيابة عن غيره، ولكن إذا صنع ذلك إهمالاً ـ لا جهلاً منه بوجوب الحج عليه ـ تصحّ نيابته وحجته النيابيّة وأن الإجارة لا تسوغ إذا كان الشخص المكلف بالحج عالماً بأنه مكلف وملتفتاً إلى ذلك.

أما إذا وقعت مثل هذه الإجارة أو أدى الأجير الحج نيابة فهو يستحق ـ على رأي هذا الفريق ـ الأجرة التي يتقاضاها الأجراء عادة للقيام بمثل ذلك العمل، وإذا كانت الأجرة المحددة في الإجارة أكثر من ذلك لم يكن له المطالبة بالزائد؛ لأنّ الإجارة باطلة.

ولابدّ أن يكون هذا النائب متمكناً من واجبات الحج كافّة، وأما إذا كان معذوراً في بعضها ـ لمرض أو غير ذلك ـ فليس من المعلوم أنّ نيابته عن غيره في الحج الواجب كافية ـ كما يقول السيد الشهيد الصدر +في فتاويه ـ وعليه أن يستأجر لأداء الحج الواجب عن غيره، و إذا بادر وتبرع بأدائه عن الغير فلا يكتفى بذلك.

ولا تشترط المماثلة بين النائب و المنوب عنه في الذكورة والأنوثة، فتصحّ نيابة المرأة عن الرجل وبالعكس.

ولا فرق في النائب بين أن يكون قد حجّ سابقاً أو لم يحج، وهناك من اشترط عدالة النائب، أو الوثوق بصحة عمله، وهذا الشرط إنما يعتبر في جواز الاستنابة لا في صحّة عمله، فيما ذهب السيد السبزواري +في موضوع العدالة إلى أنّ المناط إحراز صحة عمله ـ بحسب القواعد الشرعية كقاعدة الصحة ونحوها ـ ولو كان فاسقاً، ومع عدم الإحراز لايجوز ولوكان عادلاً.

واشترط بعض معرفة النائب بأفعال الحج وأحكامه، وإن كان بإرشاد معلّم حال كلّ عمل.

ويقول السيد السبزواري: يمكن عدّ هذا الشرط من شرائط العمل المستأجر عليه، كما يمكن عدّه من شرائط العامل، لأنّه من الأمور الإضافية المتقوّمة بالطرفين، وعلى أي تقدير فالدليل عليه ـ مضافاً إلى الإجماع ـ لزوم كون الأجير قادراً على إتيان العمل المستأجر عليه، ومع عدم المعرفة كيف يقدر عليه؟!

وهذه بعض الروايات بخصوص الاشتراط في النائب أن لا يكون عليه حجّ واجب، وحكم من حج نائباً مع وجوب الحج عليه، وأيضاً في جواز استنابة الصرورة مع عدم وجوب الحج عليه.

ـ فعن محمّد بن يعقوب، عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد، عن سعد بن أبي خلف قال: سألت أبا الحسن موسى عليه السلام عن الرجل الصرورة يحج عن الميت؟

قال: نعم، إذا لم يجد الصرورة ما يحج به عن نفسه، فإن كان له ما يحج به عن نفسه، فليس يجزي عنه حتى يحج من ماله، وهي تجزي عن الميت، إن كان للصرورة مال، و إن لم يكن له مال.

ـ وعن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام في رجل صرورة مات ولم يحج حجة الإسلام وله مال.

قال: يحج عنه صرورة لا مال له.

ـ وعن محمّد بن علي بن الحسين بإسناده عن سعيد بن عبد الله الأعرج، أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام: الصرورة أيحج عن الميت؟

فقال: نعم، إذا لم يجد الصرورة ما يحج به، فإن كان له مال، فليس له ذلك

حتى يحج من ماله، وهو يجزي عن الميت كان له مال أو لم يكن له مال[1].

وفي خصوص عدم اشتراط المماثلة، روي عن بشير النبّال أنّه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إنّ والدتي توفيت ولم تحجّ.

قال: يحجُّ عنها رجل أو امرأة.

قلت: أيّهم أحبّ إليك؟

قال: رجل أحبّ إلي».

وعن معاوية بن عمار أنّه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل يحجّ عن المرأة، والمرأة تحجّ عن الرجل.

قال: لا بأس.

وعن أبي عبد الله عليه السلام في المرأة تحج عن الصرورة، فقال عليه السلام: إن كانت قد حجّت، وكانت مسلمة فقيهة، فرُبّ امرأة أفقه من رجل[2].

هذا، وقد اشترط في المنوب عنه أن يكون مسلماً، فلا تصحّ النيابة عن الكافر، لا لعدم انتفاعه بالعمل عنه، لمنعه وإمكان دعوى انتفاعه بالتخفيف في عقابه، بل لانصراف الأدلة، فلو مات مستطيعاً، وكان الوارث مسلماً، لا يجب عليه استئجاره عنه.

وبعد أن استعرض السيد السبزواري + أدلة ذلك، وهي الإجماع المتسالم بينهم، وما تقتضيه غريزة الاختلاف الديني والمذهبي.

استدل عليه أيضاً بأمور أخرى:

فتارةً بأنّه لا ينتفع بالعمل.

وأخرى بانصراف الأدلة عنه.

---

(١) انظر وسائل الشيعة ، باب ٥ من أبواب الحج .

(٢) الوسائل ، باب ٦ من أبواب النيابة في الحج .

وثالثة بقوله تعالى: {**وماكان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولي قربى**}[1].

ورابعة: بقوله أيضاً: {**وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى**}[2].

وخامسة: بأنّ فعل النائب تابع لفعل المنوب عنه في الصحة والفساد.

وبعد استعراضه لهذه الأدلة قال: والكلّ باطل، لإمكان حصول النفع في الدنيا أو البرزخ أو تخفيف العذاب في الآخرة، ولا وجه للانصراف، ولو كان فهو بدويّ.

والآية الأولى في مقام بيان أنّ الاستغفار لا ينفع المشرك عن الخلود في النار، وأنّه نوع موادّة لمن حارب الله ورسوله، وليست في مقام عدم النفع أصلاً ولو بنحو الجملة والإجمال.

وحيث إنّ عمل النائب كعمل المنوب عنه، فكأنّه من سعي نفس الإنسان، فيشمله إطلاق الآية.

وأما الأخير فلا دليل على الملازمة من عقل أو عرف أو شرع[3].

و يشترط في المنوب عنه أيضاً كونه ميتاً، أو حيّاً عاجزاً في الحج الواجب. فلا تصحّ النيابة عن الحيّ في الواجب، إلاّ إذا كان عاجزاً. وأما في الحج الندبيّ، فيجوز عن الحي والميت، تبرعاً أو بالإجارة، ولايُناب إلاّ إذا استقرت عليه حجّة الإسلام، ولم يؤدها إلى أن مات، أو كان موسراً وعجز عن مباشرة الحج بنفسه.

وأما في الحج المستحب، فتسوغ الاستنابة فيه عن الأموات والأحياء

---

(١) التوبة: ١١٣ .

(٢) النجم: ٣٩ .

(٣) انظر مهذب الأحكام ، للسيد السبزواري ٢: ٢٣٦ المتن والهامش .

على السواء، شريطة أن يكون المنوب عنه مسلماً، ولافرق في النيابة على العموم بين أن يكون المنوب عنه طفلاً مميزاً أو بالغاً، مجنوناً، إذا استقر عليه حال إفاقته ثمّ مات مجنوناً ـ لإطلاق الأدلة الدالة على وجوب إخراج الواجبات المالية عن أصل التركة بعد تعلق الوجوب في حال الحياة جامعاً للشرائط ـ أو كان عاقلاً، شيعياً كان أو سنياً، فتصحّ النيابة عن هؤلاء جميعاً.

ومن أحكامها أو شروطها، قصد النيابة، وتعيين المنوب عنه في النية، ولو بالإجمال، ولايشترط ذكر اسمه، وإن كان يستحب ذلك في جميع المواطن والمواقف، وهنا يقول السيد السبزواري ـ تتميماً لهذا الحكم وتفصيلاً لدليله الذي ذكره الماتن ـ: أما اشتراط القصد في النيابة؛ فلأنّها من العناوين القصدية المتوقفة عليه.

وأما كفاية الإجمالي منه، فلعدم دليل على اعتبار الأزيد، بل مقتضى الإطلاقات، والأصل عدمه، كما أنّ مقتضاها عدم اعتبار ذكر اسمه أيضاً، وفي

الصحيح:

«إنّ رجلاً سأل أبا الحسن الأول عليه السلام عن الرجل، يسميه باسمه؟

فقال عليه السلام: إنّ الله لا تخفى عليه خافية».

وأما استحباب ذلك، فلصحيح ابن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام «قلت له: ما يجب على الذي يحجّ عن الرجل؟

قال عليه السلام: يسميه في المواطن والمواقف».

المحمول على الندب جمعاً وإجماعاً.

ومن أحكام النيابة: إذا مات النائب قبل الإتيان بالمناسك فهنا صور ثلاث:

الأولى: أن يكون موته قبل الإحرام، وهنا لا يجزي عن المنوب عنه، لكون الأصل عدم فراغ ذمة المنوب عنه إلا بالإتيان.

الثانية: أن يكون موته بعد الإحرام ودخول الحرم وهنا يجزي عنه، فقد روى ابن عمار في الموثق: «سألته عن الرجل يموت فيوصي بحجة، فيعطى رجل دراهم يحج بها عنه، فيموت قبل أن يحج، ثمّ أعطى الدراهم غيره، فقال عليه السلام: إن مات في الطريق أو بمكّة قبل أن يقضي مناسكه، فإنه يجزي عن الأول...»[1].

المؤيدة بمرسلة حسين بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام: «في رجل أعطى رجلاً ما يحجه، فحدث بالرجل حدث، فقال: إن كان خرج فأصابه في بعض الطريق، فقد أجزأت وإلاّ فلا».

والمرسلة الثانية، عنه عليه السلام أيضاً: «في رجل أعطى رجلاً مالاً يحج عنه فمات، قال: فإن مات في منزله قبل أن يخرج فلا يجزي عنه، وإن مات في

(١) الوسائل ، باب ١٥ من أبواب النيابة في الحج .

الطريق فقد أجزأ عنه».

الدالة على أنّ النائب إذا مات في الطريق أجزأ عن المنوب عنه، المقيدة بمرسلة محمّد بن محمّد بن النعمان المفيد في المقنعة قال: قال الصادق عليه السلام: «من خرج حاجّاً فمات في الطريق فإنّه إن كان مات في الحرم، فقد سقطت عنه الحجة، فإن مات قبل دخول الحرم، لم يسقط عنه الحج، وليقضي عنه وليه»، ولا فرق في هذا الحكم بين الحج النفسي الذي يؤديه صاحبه والحج النيابي الذي يؤديه النائب، فالرواية شاملة للحاج عن غيره أيضاً، ولا يعارضها موثقة عمار عن الصادق عليه السلام: «في رجل حج عن آخر ومات في الطريق، قال عليه السلام: وقد وقع أجره على الله، ولكن يوصي، فإن قدر على رجل يركب في رحله ويأكل زاده فعل».

الدالة على أنّ النائب إذا مات في الطريق عليه أن يوصي، لأنّها محمولة على ما إذا مات قبل الإحرام، أو على الاستحباب، وهو ـ أي الاستحباب ـ من أحسن طرق الجمع بينهم.

الثالثة: أن تدركه الوفاة بعد الإحرام وقبل دخول الحرم، وفي الإجزاء هنا قولان:

القول الأوّل: الإجزاء؛ وقد نسب هذا إلى الشيخ & وادّعى في (خلافه) الإجماع عليه، ولكنه ـ كما يقول صاحب مهذب الأحكام ـ موهون بدعوى الإجماع عن غيره على خلافه.

وذهب بعض ـ كما عليه الماتن في مهذب الأحكام ـ إلى عدم أبعدية الإجزاء وإن لم يقل به في الحاج عن نفسه، مستنداً في قوله هذا إلى إطلاق الأخبار في المقام، والقدر المتيقن من التقييد هو اعتبار كونه بعد الإحرام، ومع هذا فإنّ صاحب هذا القول يختار أقوائية.

القول الثاني: وهو عدم الإجزاء، لأنّ الاشتغال اليقيني يقتضي الفراغ

اليقيني، وظهور الإجماع، وللمرسلة: «من خرج حاجاً فمات في الطريق، فإنّه إن كان مات في الحرم فقد سقطت عنه الحجّة».

كما أنّ من يحج عن نفسه إن مات قبل دخول الحرم، لا يجزي عن حجّه، فكيف نقول به في النائب مع عدم دليل معتبر للفرق بينهما؟! كما يقول صاحب مهذب الأحكام[1].

أهل السنة

بعد أن استعرض جمع من فقهاء أهل السنة العبادات، معدّدين أنواعها ـ

(١) انظر مهذب الأحكام المتن والهامش ١٢: ٢٤١-٢٤٣.

ونحن نذكرها باختصار ـ ذكروا ما تصحّ فيه النيابة دون غيره.

أولاً: العبادات المالية المحضة، وهي كالزكاة والكفارة وتوزيع الأضاحي، فإنّ هذه تجوز النيابة فيها عندهم بالاتفاق، وفي كلتا الحالتين: حالة الاختيار وحالة الضرورة، معللين ذلك بأنّ المقصود منها هو انتفاع أهلها بها، و الانتفاع حاصل منها سواء أكان بالأصيل و مباشرته أو بنائبه.

ثانياً: العبادات البدنية المحضة وهي كالصلاة والصوم، ولأنّ المقصود من هذه العبادات إتعاب النفس، وإتعاب النفس لا يحصل إلاّ بمباشرة الأصيل المكلف، ولا يتحصل بالنائب فلا يجوز النيابة فيها.

ثالثاً: العبادات المالية والبدنية، أي أنّها مركبة من الاثنين معاً، كفريضة الحج التي نحن بصددها، وقد اتفقت كلمة مذاهب أهل السنة ـ عدا المالكية ـ على جواز النيابة فيها بشرطين:

العجز أو الضرورة.

فعند العجز تجوز النيابة، وتجوز عند الضرورة أيضاً، فالمشقة المقصودة ـ كما يقولون ـ تحصل بفعل النفس، وتحصل بفعل الغير أيضاً إذا كان بماله ـ أي مال الأصيل ـ فالمشقة تحصل للأصيل المكلّف تارةً بنفسه وأخرى بماله.

وهذه العبادات عندهم تختلف عن الصلاة باشتمالها على القربة المالية غالباً بالإنفاق في الأسفار.

أما المذهب المالكي، فعلى الصحيح عنده لا تجوز النيابة عن الحي في حجّ الفرض أو النفل، بأجرة أو لا، كما أنّ الإجارة فيه فاسدة؛ لأنّه عمل بدني لا يقبل النيابة شأنه شأن الصلاة والصوم فهو من العبادات البدنية المحضة، والمقصود منه تأديب النفس بمفارقة الأوطان وتهذيبها بالخروج عن المعتاد، من لبس المخيط وغيره؛ لتذكر المعاد والآخرة والقبر، وتعظيم شعائر الله في تلك البقاع، وإظهار الانقياد من الإنسان لما لم يعلم حقيقته، كرمي الجمار،

والسعي بين الصفا و المروة وغيرهما، وهذه مصالح ومقاصد لا تتحقق إلاّ لمن باشرها بنفسه.

وحتى الميت ـ عندهم ـ إذا أوصى بالحجّ يصحّ عنه مع الكراهة، ويكره التطوع عنه بالحج[1].

بعد هذا نعود إلى آراء فقهائهم وأقوالهم بخصوص هذا الموضوع.

أقوال فقهاء أهل السنّة

قالت الحنفية: من لم يجب عليه الحج بنفسه لعذر كالمريض ونحوه، وله مال، يلزمه أن يحج رجلاً عنه، ويجزئه عن حجّة الإسلام، أي أنّه تجوز النيابة في الحج عند العجز فقط لا عند القدرة، بشرط دوام العجز إلى الموت، وأما المقصر الذي مات فتصحّ منه بل تجب الوصية بالإحجاج عنه ويكون من بلده، إن لم يعين مكاناً آخر، فهنا حالتان:

ـ العجز.

ـ وبعد الموت بالوصية.

أما المعتمد عند المالكية فهو: إنّ النيابة عن الحي لا تجوز، ولا تصحّ مطلقاً إلاّ عن ميت أوصى بالحج، فتصح النيابة مع الكراهة وتنفذ من ثلث ماله، ولا حجّ على المعضوب إلاّ أن يستطيع بنفسه للآية: {**من استطاع إليه سبيلاً**}، وهذا غير مستطيع.

وأما الشافعية: فقد أجازوا الحجّ عن الغير في حالتين:

الحالة الأولى: حالة المعضوب: وهو العاجز عن الحج بنفسه لكبر أو زمانة أو غير ذلك، و هو الذي لا يثبت على الراحلة، بل يلزمه الحج إن

(١) أُنظر في هذا كلاً من فتح القدير ٢ : ٣٠٨ وما بعدها ، والبدائع ٢ : ٢١٢ ومابعدها ، والقوانين الفقهية : ١٢٨ ، ومغني المحتاج ١ :٤٦٨ ، ومتن الإيضاح : ١٧ ، وغاية المنتهى ١ :٢٥٨ وغيرها .

وجد من يحج عنه بأجرة المثل بشرط كونها فاضلة عن حاجاته المذكورة فيمن حجّ بنفسه، لكن لا يشترط نفقة العيال ذهاباً وإياباً؛ لأنّه مستطيع بغيره، لأنّ الاستطاعة كما تكون بالنفس، تكون ببذل المال وطاعة الرجال، فيجب على من عجز عن الحج بنفسه ـ لهرم أو مرض لا يرجى برؤه ـ الاستنابة إن قدر عليها بماله أو بمن يطيعه بأن كان متبرعاً موثوقاً به.

الحالة الثانية: وهي حالة من يأتيه الموت ولم يحج، فيجب على ورثته الإحجاج عنه من تركته، كما يقضى منها دينه، ويلزمهم أن يخرجوا من ماله بما يحج به عنه، بالنفقة الكافية ذهاباً وإياباً.

ومن هذا يتضح أنّ الاستطاعة عند الشافعية نوعان:

أ ـ استطاعة المباشرة بنفسه.

ب ـ استطاعة تحصيله بغيره.

ولكلّ منهما شروط.

فشروط الأولى:

الراحلة لمن كان بينه و بين مكّة مسافة القصر (مرحلتان) فصاعداً، والزاد، وأمن الطريق، وصحة البدن، وإمكان المسير: وهو أن يبقى من الزمان بعد وجود الزاد والراحلة، ما يمكن فيه السير المعهود إلى الحجّ.

وأما شروط الاستطاعة الثانية: فهي أن يعجز عن الحج بنفسه بموت أو كبر، أو زمانة أو مرض لا يرجى زواله، أو هرم بحيث لا يستطيع الثبوت على الراحلة إلاّ بمشقة شديدة. وهذا العاجز الحي يسمى معضوباً.

وتجب الاستنابة عن الميت إذا كان قد استطاع في حياته، ولم يحج، إذا كان له تركة، وإلاّ فلا يجب على الوارث، ويجوز للوارث والأجنبي الحج عنه سواء أوصى به أم لا.

وأما المعضوب فلا يصح عنه الحج بغير إذنه، وتلزمه الاستنابة إن وجد

مالاً يستأجر به من يحج عنه فاضلاً عن حاجته يوم الاستئجار خاصة، سواء وجد أجرة راكب أو ماشي، بشرط أن يرضى بأجر المثل، وإن لم يجد مالاً، ووجد من يتبرع عنه بالحج من أولاده الذكور أو الإناث، لزمه استنابته.

وتجوز الاستنابة في حجّ التطوع للميت والمعضوب على الأصح، ولو استناب المعضوب من يحج عنه، ثمّ زال العضب وشفي، لم يجزه على الأصح، بل عليه أن يحج[1].

أما إذا مات بعد التمكن من الأداء، لم يسقط الفرض، ويجب قضاؤه من تركته، ويجب قضاؤه عنه من الميقات؛ لأنّ الحجّ يجب:

أ ـ من الميقات.

ب ـ ويجب من رأس المال؛ لأنّه دين واجب، فكان من رأس المال كدين الآدمي، وإن اجتمع الحج ودين الآدمي، والتركة لا تتسع لهما فالأصح أنّه يقدم الحج.

وأما الحنابلة، فهم كالشافعية أجازوا الحجّ عن الغير في حالتين أيضاً:

الحالة الأولى: المعضوب: وهو من عجز عن السعي إلى الحج والعمرة لكبر أو زمانة أو مرض لا يرجى برؤه، أو ثقل لايقدر معه الركوب على الراحلة إلاّ بمشقة غير محتملة، أو آيست المرأة من محرم. فيلزم كلّ من هؤلاء الحج إن وجد من ينوب عنه حراً، ومالاً يستنيبه به، فيحج عنه ويعتمر على الفور من بلده، أو من الموضع الذي أيسر منه إن كان غير بلده.

أما النائب فيجوز عندهم أن يكون رجلاً عن امرأة وبالعكس، امرأة عن رجل، بلا خلاف بين العلماء، لكن يكره عند الحنفية إحجاج المرأة؛ لاشتمال حجّها عادة على نوع من النقصان، فإنها لا تزمل في الطواف وفي السعي بين

(١) أُنظر الإيضاح للنووي: ١٦ ومابعدها ، والمهذب ١: ١٩٩ .

الصفا والمروة، و لا تحلق.

وإن لم يجد مالاً يستنيب به، فلا حج عليه بغير خلاف؛ لأنّ الصحيح (غير المريض) لولم يجد ما يحج به، لم يجب، فالمريض أولى، وإن وجد مالاً ولم يجد من ينوب عنه، فهل هو من شرائط الوجوب وهو المذهب، فلا يجب عليه شيء بعد الموت، أم من شرائط لزوم السعي للحج، فيجب الحج عنه بعد موته؟

ومن يرجى زوال مرضه وفك حبسه، ليس له أن يستنيب، فإن فعل لم يجزئه، لأنه يرجو القدرة على الحج بنفسه، فلم يكن له الاستنابة، ولا تجزؤه إن فعل كالفقير.

وإن عوفي المعضوب قبل إحرام النائب لم يجزئه حج النائب عنه اتفاقاً، للقدرة على المبدل قبل الشروع في البدل، كالمتيمم يجد الماء.

ومتى أحج المعضوب عن نفسه، ثمّ عوفي، لم يجب عليه حج آخر؛ لأنّه أتى بما أمر به، فخرج عن العهدة، كما لو لم يبرأ.

وقال الشافعية والحنفية: يلزمه حج آخر؛ لأنّ هذا بدل إياس، فإذا برأ تبينا أنّه لم يكن مأيوساً منه، فلزمه الأصل، كالآيسة إذا اعتدت بالشهور، ثمّ حاضت، لا تجزؤها تلك العدة.

ولا يجوز الحج والعمرة عن حي إلاّ بإذنه فرضاً كان أو تطوعاً؛ لأنها عبادة تدخلها النيابة، فلم تجز عن البالغ العاقل إلاّ بإذنه كالزكاة.

الحالة الثانية: الميت الذي وجب عليه الحج: من وجب عليه الحج، لاستكمال الشرائط السابقة المطلوبة، ثمّ توفي قبله، فرّط في الحج بأن أخره لغير عذر، أو لم يفرط كالتأخير لمرض يرجى برؤه أو الحبس أو الأسر أو نحوه، أخرج عنه من جميع ماله حجة وعمرة، ولو لم يوص به. ويكون الإحجاج عنه من حيث وجب عليه، لا من حيث مكان موته؛ لأنّ القضاء

يكون بصفة الأداء، بل يجب ألا يكون النائب من خارج بلده التي تبعد فوق مسافة القصر، ويجوز من نائب من بلد آخر دون مسافة القصر؛ لأنّ مادونها في حكم الحاضر، وإن مات من وجب عليه الحج في الطريق أو مات نائبه في الطريق، حجّ عنه من حيث مات هو أو نائبه، فيما بقي مسافةً وقولاً وفعلاً.

أما عن الميت، فيسقط عنه بحج أجنبي عنه ولو بلا إذن وليه؛ لأنه ' شبهه بالدين، أي أنّ الحج عن الميت يجوز عنه بغير إذنه واجباً كان أو تطوعاً، بخلاف الحي، لأنه ' أمر بالحج عن الميت، مع العلم أنه لا إذن له، وما جاز فرضه جاز نفله كالصدقة.

وإن وصّى المسلم بحج نفل ولم يعين محل الاستنابة، جاز أن يحج عنه من الميقات أي ميقات بلد الموصي، ما لم تمنع منه قرينة، بأن يوصي أن يحج بقدر يكفي للنفقة من بلده، فيتعين منها، فإن ضاق ماله عن الحج من بلده بأن لم يخلف مالاً يفي به، أو كان عليه دين، أخذ للحج بحصته، وحج به من حيث يبلغ، لشبهه بالدين.

وخلاصة ذلك: أنّ المالكية والحنفية يجيزون الحجّ عن الميت إذا أوصى، وتنفذ الوصية من ثلث المال، فيما أجاز الجمهور غير المالكية الحجّ عن الحي العاجز لمرض ونحوه.

وحجّ النائب يكون عند الحنفية والحنابلة من بلد المنوب عنه. أما عند الشافعية فيكون من الميقات، وتنفذ الوصية عند الشافعية والحنابلة من رأس المال، لا من الثلث فقط.

هذا، وأنّ حجّ النائب عن الميت يكون على الفور عند الجمهور؛ لقوله تعالى: {**وأتمّوا الحج والعمرة لله**}، {**ولله على النّاس حجّ البيت**} والأمر على الفور.

أما عند الشافعي فعلى التراخي، وللنائب تأخيره؛ لأنّ النبيّ ' أمّر أبابكر

على الحج وتخلّف بالمدينة، لا محارباً ولا مشغولاً بشيء، وتخلف أكثر الناس قادرين على الحج، فدلّ على أن وجوبه على التراخي[1].

أما بالنسبة للصرورة، وهو من لم يحج عن نفسه، فقد أجازت الحنفية مع الكراهة التحريمية حجّ الصرورة، ولم يشترطوا أن يكون النائب قد حجّ عن نفسه، عملاً منهم بإطلاق حديث الخثعمية: «حجي عن أبيك» من غير استفسار عن سبقها الحج عن نفسها، وترك الاستفصال في وقائع الأحوال ينزل منزلة عموم المقال أو الخطاب، أما سبب الكراهة فهو أنه تارك فرض الحج.

وقال المالكية: يكره الحج عن غيره، أي في حالة الوصية بالحج قبل أن يحج عن نفسه، بناءً على أنّ الحج واجب على التراخي، وإلاّ منع على القول بأنه على الفور، وهو المعتمد عندهم.

وقال الشافعية والحنابلة: لا يصح الحج عن الغير مالم يكن النائب قد حج عن نفسه حجة الإسلام؛ لأمر النبي ‘ رجلاً يلبي عن شبرمة، فقال له: حج عن نفسك، ثم عن شبرمة، ويحمل ترك الاستفصال في حديث الخثعمية على علمه عليه السلام بأنها حجت عن نفسها أولاً، وإن لم يرد لنا طريق علمه بذلك، جمعاً بين الأدلة كلها، ويؤيده حديث آخر: «لا صرورة في الإسلام»[2].

وهو الذي رواه أبو داود بإسناد صحيح، بعضه على شرط مسلم، وباقيه على شرط البخاري، وقال الشافعي: أكره أن يسمى من لم يحج صرورة، وسمي صرورة لأنه صرّ بنفسه عن إخراجها في الحج، وكذلك قال الحنابلة:

---

(١) انظر مقالتنا «الفور والتراخي في فريضة الحج» ميقات الحج ، العدد ١١: ٩٨ ، وانظر كلّ هذا التفصيل في الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي ٣: ٣٧ ، والنووي في حج الفرض في المجموع شرح المهذب .

(٢) انظر مسند (أبو داود) . الصرورة .

تكره تسمية من لم يحج صرورة، لحديث لا صرورة في الإسلام[1].

روايات أهل السنة

استدل فقهاؤهم على مشروعية النيابة في الحج بالأحاديث التالية:

ـ عن ابن عباس وعن غيره: أنّ امرأةً من خَثْعَم، قالت: يا رسول الله، إنّ أبي أدركته فريضة الله في الحج شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره.

قال: فحُجِّي عنه[2].

وقد رواه أحمد والنسائي بمعناه عن عبد الله بن الزبير بلفظ: جاء رجل من خثعم، يصف حال أبيه الكبير[3].

وكان هذا في حجّة الوداع.

وهو يدل على جواز الحج عن الوالد غير القادر على الحج.

ـ وعن ابن عباس أيضاً: أنّ امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ‘، فقالت: إنّ أمّي نذرت أن تحج، فلم تحج، حتى ماتت، أفأحج عنها؟

قال: نعم، حجّي عنها، أرأيت لوكان على أمّك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحقّ بالوفاء[4].

فيما رواه الدارقطني بلفظ: أتى النبي ‘ رجل، فقال: إن أبي مات، وعليه حجة الإسلام، أفأحج عنه؟

قال: أرأيت لو أنّ أباك ترك ديناً عليه، أقضيته عنه؟

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) رواه أصحاب الكتب الستة عن ابن عباس ، ورواه أحمد والترمذي .

(٣) نيل الأوطار ٤: ٢٨٥ ، سبل السلام ٢: ١٨١ .

(٤) رواه البخاري ، والنسائي بمعناه عن ابن عباس كما في نيل الأوطار ٤: ٢٨٥ وما بعدها ، وسبل السلام ٢ : ١٨١ .

قال: نعم.

قال: فاحجُجْ عن أبيك.

فقد دلّ هذا الحديث على إجزاء الحج عن الميت من الولد، وشبهه بالدين.

ـ فيما دلّت رواية أخرى وفيها «إنّ أختي نذرت أن تحج» دلت على صحّة الحج عن الميت من الوارث وغيره؛ لأنّ رسول الله ‘لم يستفصلها أوارثٌ هي أم لا؟

ـ وعن بريدة أنّه قال: جاءت امرأة إلى النبي ‘ فقالت: إنّ أمّي ماتت ولم تحجَّ [يقول صاحب التاج في الهامش: يعني حجة الإسلام] أفأحُجُّ عنها؟

قال: نعم حُجِّي عنها، رواه الترمذي في الحج، ومسلم في الصوم.

فصريح هذه النصوص ـ كما يقول صاحب التاج الجامع للأصول ـ يدل على أنّ من مات وعليه واجب للعباد كالدين أو لله كالحج والكفارة والزكاة والنذر، وجب على وليه قضاؤه من رأس ماله إن كان، و إلا ندب له قضاؤه، ولو قضاه أجنبي بإذن وليه كفى، ويجب الوفاء بنذر الحج ولا يسقط به الفرض؛ لأنّه أصلي، وقيل: يجزىء عن النذر وحجّ الإسلام[1].

وقد دلّت السنة عندهم على اشتراط كون النائب قد حجّ عن نفسه، مستندين في هذا إلى ما رواه ابن عباس: إنّ النبي ‘ سمع رجلاً يقول: لبّيك عن شُبْرمة.

قال: من شُبْرمة؟

قال: أخ لي، أو قريب لي.

---

(١) أُنظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ للشيخ منصور علي ناصف ٢: ١١٠ـ١١١ ، وقد ذكر هذه الروايات أصحاب الكتب الستة .

قال: حججت عن نفسك؟

قال: لا.

قال: حجّ عن نفسك، ثمّ حج عن شبرمة.

فيما روى أبو داود وابن ماجة أنّه قال: فاجعل هذه عن نفسك، ثمّ احجج عن شبرمة.

فيما ذكر الدارقطني: هذه عنك وحجّ عن شبرمة[1].

الشروط

وفي شروط الحج عن الآخر، اشترطت الحنفية عشرين شرطاً للحج عن الغير، نستعرض بعضها مع ذكر آراء الفقهاء الآخرين في أهمّها:

(١) أبو داود وابن ماجة ، وأُنظر نيل الأوطار ٤: ٢٩٢ .

١ – النية

أي يجب على النائب أن ينوي عن الأصيل عن الإحرام؛ لأنه يحج عن الأصيل لا عن نفسه. ويفضل أن يقول النائب: أحرمت عن فلان، ولبيت عن فلان، ونويت الحج عن فلان وأحرمت به لله تعالى، ولبيك عن فلان.

ولو نسي اسمه فنوى عن الأصيل صح، أي أنّ نية القلب كافية، وهذا الشرط متفق عليه عند فقهائهم.

٢ – العجز

أي أن يكون الأصيل عاجزاً عن أداء الحج بنفسه، وله مال. وإلاّ فلا يصح هذا النوع من الحج، أي أنه إن كان صحيح البدن وله مال، لا يجوز حج غيره عنه. وهذا باتفاق جمهورهم إلا المالكية الذين لا يجيزون الحج عن الحي مطلقاً، وعليه: لايجوز أن يستنيب في الحج الواجب من يقدر على الحج بنفسه إجماعاً.

٣ – استمرار العجز

أي استمرار هذا العجز كالحبس والمرض إلى الموت، فلو زال هذا العجز قبل الموت لم يجزئه حج النائب؛ معلّلين هذا بأنّ جواز الحج عن الغير ثبت بخلاف القياس لضرورة العجز الذي لا يرجى برؤه، فيتقيّد الجواز به.

وأما الحنابلة، فقد قالوا بإجزائه، لأنّه أتى بما أمر به، فخرج عن العهدة كما لو لم يزل عذره.

٤ – وجوب الحج

فلو حج الفقير أو غيره ـ ممّن لم يجب عليه الحج ـ عن الفرض، لم يجز حج غيره، وإن وجب بعد ذلك.

٥ ـ وجود العذر قبل الإحجاج.

فلو أحج صحيح غيره، ثمّ عجز، لا يجزيه.

وهذان الشرطان الرابع والخامس مفهومان بداهة.

٦ – أن تكون النفقة من مال الأصيل، كلها أو أكثرها، وهو رأي الحنفية، إلاّ الوارث إذا تبرع بالحج عن مورثه، تبرأ ذمة الميت، إذا لم يكن قد أوصى بالإحجاج عنه، فإن تطوع النائب بالحج من مال نفسه لم يقع عن الميت، وكذا إذا أوصى الميت المورث أن يحج عنه بماله، ومات، فتطوع عنه وارثه بمال نفسه، لا يجزي عن الميت؛ لأنّ الفرض تعلق بماله، فإذا لم يحج بماله، لم يسقط عنه الفرض.

أما الشافعية ـ وكذلك الحنابلة ـ فقد أجازوا التطوع بالحج من الوارث أو الأجنبي عن الغير مطلقاً، سواء أوصى الميت أم لم يوص، أو لم يأذن الوارث للأجنبي، كمن يتبرع بقضاء دين غيره.

٧ – أن يقع الإحرام من الميقات على النحو الذي طالب به الأصيل. فيما قال الحنابلة: يجب على النائب الحج من بلد الأصيل؛ لأن الحج واجب على العاجز أو الميت من بلده، فوجب أن ينوب عنه منه، والقضاء يكون على وجه الأداء، كقضاء الصلاة والصوم، وكذلك في حج النذر والقضاء...

٨ – اشترطت الحنفية أن يأمر الأصيل بالحج عنه، فلا يجوز الحج عن الغير بغير إذنه إلاّ الوارث، فله أن يحج عن المورث بغير إذنه، وتبرأ ذمة الميت إذا لم يكن أوصى بالحج عنه، ودليلهم حديث الخثعمية المروي عن ابن عباس.

ولو حجّ عنه أجنبي تسقط عنه حجة الإسلام إن شاء الله تعالى، لأنه إيصال للثواب، وبعد الوصية يجزيه من غير المشيئة.

٩ – إسلام النائب والأصيل وتوفّر العقل لديهما، فلا يصحّ الحج من المسلم للكافر، ولا من المجنون لغيره، ولا عكسه، ولو وجب الحج عن المجنون قبل طروء جنونه صحّ الإحجاج عنه.

١٠ – أن يكون النائب مطلقاً (بالغاً عاقلاً)، وأجاز الحنفية كون النائب صبياً مميزاً.

وهناك شروط أخرى اكتفينا بأهمها، وللمزيد انظر الجزيري في الفقه على المذاهب الأربعة، والزحيلي في الفقه الإسلامي وأدلته.

ونكتفي بهذا القدر من مشروعية النيابة في الحج عند المذاهب الإسلامية، وقد قلنا: إنّ النيابة تتحقق بالإجارة والتبرع والجعالة، آملين البحث مستقبلاً في الإجارة المذكورة وشروطها وأحكامها.

الحج في الأدب العربي

إدارة التحرير

مناجاة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

لك الحمدُ ياذا الجودِوالمجْدِ والعُلا ... تباركت تُعطي من تشاء وتمنعُ

إلهي وخلاَّقي وحرزي وموئلي ... إليك لدى الإِعسار واليُسر أَفزعُ

إِلهي لئن جلت وجمَّت خطيئتي ... فعفوُك عن ذنبي أَجلُّ وأوسعُ

إلهي لئن أَعطيت نفسي سؤلها ... فها أنا في أَرضِ النّدامة أَرتعُ

إلهي ترى حالي وفقري وفاقتي ... وأنت مناجاتي الخفيّة تسمعُ

إلهي فلا تقطع رجائي ولا تزغ ... فؤادي فلي في سَيب جُودِك مطمعُ

إلهي لئن خيَّبتني أو طردتني ... فمن ذا الذي أرجو ومَنْ لي يشفعُ

إلهي أَجِرْني من عذابِك إنني ... أسيرٌ ذليلٌ خائفٌ لك أخضعُ

إلهي فآنِسني بتلقين حجَّتي ... إذا كان لي في القَبْر مثوىً ومضجعُ

إلهي لئن عذَّبتني ألف حجة ... فحبلُ رجائي منك لا يتقطَّعُ

إلهي أذقني طعْمَ عفوِك يوم لا ... بنونَ ولا مالٌ هنالك يَنْفعُ

إلهي إذا لم ترعَني كنت ضائعاً ... وإن كنت ترعاني فلست أضيعُ

إلهي إذا لم تعفُ عن غير محسن ... فمن لمسيء بالهوى يتمتّعُ

إلهي لئن فرَّطت في طلب التُّقى ... فها أنا اِثر العفو أقفو وأتَبعُ

إلهي لئن أخطأتُ جهلاً فطالما ... رجوتك حتى قيل ها هو يجزعُ

إلهي ذنوبي جازت الطّود واعتلَت ... وصفحُك عن ذنبي أجلُّ وأرفعُ

إلهـي ينجـي ذكر طَولك[1] لوعتي ... وذِكْر الخطايا العينُ منِّي تدمَعُ

إلهي أنلني منك روحاً ورحمةً ... فلست سوى أبواب فضلك أقرعُ

إلهي لئن أقصيتَني أو طردتَني ... فما حيلتي يا ربّ أم كيف أصنعُ

إلهي حليف الحبِّ بالليل ساهرٌ ... يُنادي ويدعو والمغفّل يهجعُ

وكلهم يرجو نوالك راجياً ... لرحمتك العُظْمى وفي الخلد يطمَعُ

إلهي يُمنيني رجائي سلامةً ... وقُبحُ خطيئاتي[2] عليَّ يشيّعُ

إلهي فإن تعفو فعفوك مُنقذي ... وإلاّ فبالذّنْبِ المدمِّرِ أُصرَعُ

---

١ ـ طولك: فضلك وإحسانك.

٢ ـ خطيئتي.

(إلهي بحقِّ الهاشمي وآله وحرمة إبراهيم خلّك أضرعُ)
إلهي فانشرني على دينِ أحمد تقيّاً نقياً قانتاً لك أخشَعُ
ولا تحرمنّي يا إلهي وسيِّدي شفاعته الكُبْرى فذاك المُشفَّعُ
وصلِّ عليه ما دعاك موحِّدٌ ونـاجاك أخيـارٌ ببـابِـك رُكّعُ[1]

* * *

القصيدة الدالّية لابن فارض

خَفِّفِ السّير

خفِّفِ السّيرَ واتّئِدْ، يا حادي إنّما أنتَ سائِقٌ بِفُؤادي[2]
ما تَرى العِيسَ بَينَ سَوق وشَوْق لرَبيعِ الرُّبوعِ، غَرْثَى، صوادي[3]
لم تُبَقّي لها المَهامِهُ جِسْماً غَيـرَ جِـلْـد على عِـظـام بَـواد[4]
وتحَفّتْ أخْفافُها، فَهيَ تَمْشي مِن وَجاها، في مِثلَ جَمرِ الرّمادِ[5]
وبَراها الوَنَى، فَحَلّ بُراها خَلّها تَرْتَوي ثِمادَ الوِهادِ[6]

---

١ ـ ديوان الإمام علي عليه السلام ، تحقيق الأستاذ: نعيم زرزور.
٢ ـ اتئد: تمهل. الحادي: سائق الإبل.
٣ ـ غرثى: جائعة. صواد: عطاش.
٤ ـ المهامه، الواحد مهمه: الفلاة.
٥ ـ أخفافها، الواحد خف: وهو للبعير بمنزلة الحافر للفرس. الوجى: الحفا.
٦ ـ براها: هزلها. الونى: التعب. براها، الواحدة برة: حلقة تجعل في أنف البعير. ثماد الوهاد: بقية الماء في الأراضي المنخفضة.

شَفّها الوَجْدُ، إن عَدِمتَ رواها فاسقِها الوَخْدَ مِن جِفارِ المِهادِ[1]

واستَبِقْها، واستَبْقِها، فَهْيَ مِمّا تَترامَى بهِ إلى خَيرِ واد[2]

عَمْرَكَ اللهَ، إن مَرَرْتَ بوادي يَنْبُعٍ، فالدّهْنا، فبَدْرٍ، غادي[3]

وسَلَكْتَ النّقَا، فأوْدانَ وَدّا نَ، إلى رابِعِ الرّويّ الثّمادِ[4]

وقطَعْتَ الحِرارَ، عَمداً، لِخَيما تِ قُدَيد، مَواطِنِ الأمجادِ[5]

وتَدانَيْتَ مِنْ خُلَيص، فعسْفا نَ، فَمَرّ الظّهرانِ، مَلقَى البَوادي[6]

ووَرَدتَ الجَموم، فالقَصَر، فالدّكْـ ـناء، طُرّاً مَناهِلَ الوُرّادِ[7]

وأتَيْتَ التّنْعيمَ، فالزّاهِرَ الزّا هِرَ نَوراً، إلى ذُرى الأطوادِ[8]

وعَبَرْتَ الحُجون، واجتَزْتَ، فاخترْ تَ، ازدياراً، مشاهدَ الأوتادِ[9]

وبَلَغتَ الخيامَ، فابْلِغْ سَلامي عَنْ حِفاظٍ، عُرَيْبَ ذاكَ النّادي[10]

---

١ ـ شفها: أنحلها حتى رَقت فظهر ما وراءها. الوجد: الحب. رواها: ما يرويها. الوخد: سير سريع. الجفار، الواحد جفر: البئر الواسعة. المهاد: الأرض المنخفضة.

٢ ـ استبقها: اسبقها. استبقها: احفظها. تترامى به: تتقاذف به، يريد تسير عليها.

٣ ـ ينبع، والدهناء، وبدر: مواضع. غادي: أراد غادياً أي مبكراً، بالنصب على الحال من التاء في مررت.

٤ ـ النقا، وأودان ودان، ورابغ: مواضع. الروي: المرتوي. الثماد: الماء القليل.

٥ ـ الحرار، الواحدة حرة: الأرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار. قديد: اسم علم.

٦ ـ خليص، وعسفان، ومر الظهران: مواضع. ملقى البوادي: ملتقى أهل البادية.

٧ ـ الجموم: البئر الكثيرة الماء. القصر والدكناء: موضعان. المناهل، الواحد منهل: موضع الشرب. الوراد، الواحد وارد: الذي يأتي الماء ليشرب.

٨ ـ التنعيم والزاهر الأولى: موضعان. الزاهر الثانية: المشرق. النور: الزهر الأبيض.

٩ ـ الحجون: جبل. الازديار: الزيادة. الأوتاد: الجبال، وأراد هنا الأولياء الصالحين.

١٠ ـ عن حفاظ: عن تحفظ.

وَتَلَطَّفْ، واذكُرْ لهمْ بَعضَ ما بي ... من غرامٍ، ما إنْ لَهُ مِنْ نفادِ

يا أخلايَ، هل يعود التداني ... منكُمُ، بالحمى، بعَوْدِ رُقادي؟

مَا أمَرّ الفِراقَ، يَا جيرَةَ الحَـ ... ـيّ، وأحلَى التّلاقِ بَعدَ انْفرَادِ[1]

كيَفَ يَلتَذّ بالحَياةِ مُعَنّـىً ... بَينَ أحْشائِهِ كَوَرْيِ الزّنَادِ

عُمْرُهُ واصْطِبارُهُ في انْتِقاصٍ ... وَجَوَاهُ ووَجْدُهُ في ازْدِيادِ

في قُرَى مِصرَ جِسْمُهُ، والأُصَيحا ... بُ شَآماً، والقلب في أجيادي

إن تعُدْ وقفة، فويق الصـ ... ـحيرات روحاً سَعِدْتُ بَعدَ بعادِي[2]

يا رَعَى اللهُ يَوْمَنا بالمُصَلّى ... حَيْثُ نُدْعى[2] إلى سَبيلِ الرّشادِ[3]

وَقِبابُ الرّكابِ، بَيْنَ العُلَيْمَيْـ ... ـنِ، سِراعاً، لِلْمأزِمَينَ، غوَادِيْ[4]

وَسَقَى جَمْعَنا بجَمْع، مُلِثّاً ... ولُيَيْلاتِ الخيْفِ، صَوْبُ عِهادِ[5]

مَنْ تَمَنّى مالاً وَحُسْنَ مَآل ... فَمُنائي مِنى، وأقصَى مُرادي

يا أُهَيْلَ الحِجازِ إنْ حَكَمَ الدّهـ ... ـرُ ببَينٍ، قضاءَ حتمٍ إرادي

فغرامي القديم فيكم غرامي ... ووِدادي، كَما عَهِدْتُمْ، وِدادي

---

١ ـ قوله التلاق: حذف الياء تجوزاً، مراعاة للوزن.

٢ ـ الصحيرات: موضع بعينه. رواحاً: مساء.

٣ ـ المصلى: موضع. سبيل الرشاد: طريق الخير.

٤ ـ العُلَيْمَيْن: تصغير لمثنّى علم: الجبل. المأزمين: الضيقين.

٥ ـ ملثاً: دائم المطر، وهو حال مقدم من صوب عهاد، أي المطر من أمطار الربيع.

قَدْ سكَنتُمْ مِنَ الفُؤادِ سُوَيْدا ... هُ، وَمِنْ مُقلَتي سَوَاءَ السّوَادِ[1]

يا سَميري رَوّحْ بمَكّةَ، رُوحي ... شادِياً، إنْ رَغِبْتَ في إسْعادي[2]

فَذَرَاها سِرْبي، وطِيبي ثَراها ... وَسَبيلُ المَسيلِ وِرْدي وَزَادِي[3]

كانَ فيها أنسي وَمِعراجُ قُدْسي ... وَمُقامي المَقامُ، والفَتحُ بادِ[4]

نَقَلَتني عَنها الحُظُوظُ، فَجُذّتْ ... وَارِداتي، وَلَمْ تَدُمْ أوْرَادِي[5]

آهِ لَوْ يَسْمَحُ الزّمانُ بعَوْدٍ ... فَعَسَى أنْ تَعُودَ لي أعْيَادي

قَسَماً بالحَطيمِ، وَالرّكْنِ، والأسْـ ... ـتَارِ، والمَرْوَتَينِ، مَسعْىَ العِبادِ[6]

وَظِلالِ الجنَابِ، والحِجرِ، والميـ ... ـزَابِ، والمُسْتَجار للقُصّادِ[7]

ما شَمِمْتُ البَشامَ إلاّ وأهْدَى ... لِفُؤادي، تحيّةً مِنْ سُعَاد[8]

❊ ❊ ❊

١ ـ سويداه: حبته. سواء السواد: حبته.

٢ ـ سميري: محدثي ليلاً. روح: أعط الراحة.

٣ ـ ذراها: ساحتها. سربي: طريقي. سبيل: طريق. المسيل: أي مسيل الماء.

٤ ـ معراج: مصعد، سلم. الفتح: أراد به النصر. باد: ظاهر.

٥ ـ جذت: قطعت. وارداتي: ما يرد إلي. أورادي، الواحد ورد: الجزء من القرآن.

٦ ـ الحطيم: مكان بمكة. الركن: أحد أركان الكعبة. الأستار: أستار الكعبة، ما تستر به من النسيج. المروتان: هما المروة والصفا: جبلان في مكة. مسعى العباد: أي حيث يسعى العباد في حجهم.

٧ ـ الجناب: هضاب في مكة. الحجر: أراد حجر إسماعيل في البيت الحرام. الميزاب: أراد ميزاب الرحمة في البيت الحرام. المستجار: اسم موضع.

٨ ـ البشام: شجر طيب الرائحة.

في بيان حقائق مناسك الحج

عبدالرزاق الكاشاني (ت ٧٣٦هـ)

إنّي وَإنْ تَرَني لَحْماً عَلَى وَضمٍ ... عَوَّلتُ مِن جانبِ المَولى عَلَى كَرَمٍ

مَؤلاَي مَوْلاَيَ مَوْلى مَا اسْتَعَاذَ بِهِ ... ذوُ فاَقَةٍ قَطُّ إلاّ صَارَ ذَا نعَمٍ

وَلاَ تَوكَّلَ مُسْقامٌ وَ لاَدنِفٌ ... عَلَيْهِ إلاّ وَقَدْ عَافَاهُ مِنْ سقَمِ

وَلاَ اسْتَعَانَ بِهِ مُسْتَضْعَفٌ وَجِمٌ ... إلاّ وأنْقَذَهُ مِنْ أَزْمَةِ الغَشمِ

فَثِقْ بِهِ وَتَوكَّلْ فِي بَلِيَّتِهِ ... عَلَيْهِ تَحْظ بِهِ فِي البُؤْسِ وَالنِّقَمِ

سَلِّمْ إِلَيْهِ وُجُوداً حَقُّهُ عَدَمٌ ... ألا تُسَلِّمُ مَالَمْ يَبْدُ عَنْ عَدَمِ؟!

فَوِّضْ إِلَيْهِ أمُوراً لا تُصَرِّفُهَا ... فَلَيْسَ فِي يَدِكَ التَّصْرِيفُ بِالقَلَمِ

وجَرِّدِ العَزْمَ وَاسْلُكْ فِي مَحَجَّتِهِ ... سَهْلاً وَ لاَفرْقَ بَيْنَ الرَّأسِ وَالقَدَمِ

مَا نَالَ مَقْصُودَهُ مَنْ كانَ فِي طَلَب ... وَالعَزم فِيهِ فُتُورٌ شَابَ بِالنَّدَمِ

إذَا رَأَيْتَ بِعَيْنِ القَلْبِ خَلوَتَهُ ... فِي صُورَة القَادِرِ الفَعَّالِ ذا اعتَصمِ

بِحَوْلِهِ فَلَهُ الحَوْلُ الشَّدِيدُ إذَا ... فَعَلْتَهُ فَلَكَ الوُثقَى مِنَ العِصَمِ

لاَ كَوْنَ لِلخَلْقِ كَيْفَ الحَوْلُ عَنْ عَدَمِ ... والقُوَّةُ ابْرَأ بِهِ مِنْ كُلِّ مُتَّهمِ

إذَا قَدَرْتَ عَلَى ذَا فَاعْلَمَنَّ بِهِ ... بِأَنَّهُ مُقَدِّرٌ إِيَّاكَ لاَ تُهَمِ

وَاطْلُبْ مَرَاضِيَهُ فِيما فَعَلْتَ وكُنْ ... عَنْ فِعْلِهِ رَاضِياً فَالْكُلُّ بِالْحِكَمِ

وَاحْرُزْ قُوَاكَ وَمَا مِنهَا بِرُمَّتِهِ ... فَإنَّها فَضَلاتٌ فِيكَ كَالزّنَمِ

وَانظُرْ إلَى المُمْكِنِ المَوْجُود عَنْ عَدَم ... فَإنَّ مَوْقِعهُ لا شَيْءَ فِي القِدَمِ

وَمَا حقِيقَتُهُ أمْرٌ تُخيِّلُهُ ... فَلا وُجُودَ لَهُ، وَاللهِ ـ ذا! ـ قَسَمِ

إنَّ المُوَحِّدَ لَمْ يُبْصِرْ سِوى أحَدٍ ... وَلاَيَرى أحَدٌ نَهْجاً سِوى اُمَمِ

فَوَجهُهُ مُتجَلٍّ، أَينَ ذُو بَصَرٍ؟ ... وَنَهْجُهُ مُستَقِيمٌ، أيْنَ ذُو قَدَمِ؟

وَجَّهْتُ وَجْهِي للهِ الَّذِي فَطَرَ الـ .. ... أعيَانَ لِلكُلِّ وَالأَرواحَ لِلنِّسَمِ

أَحرَمْتُ عَمَّا سِواهُ قاصِداً سَنَداً ... إلَيهِ مُستَنَد الأَحياءِ وَالرِّسَمِ

مِمَّا حواهُ يَدِي أو ضَمَّهُ خَلَدِي ... بَرِئتُ قَبْلُ دُخُولِي حَوْمَةَ الحَرَمِ

إذا خَلَعتُ صِفاتِي لابساً صِفَةَ الـ. ... قُدُّوسِ فَكَّرْتُ فِي تَقْبِيلِ مُسْتَلِمِ

وَطُفتُ بِالبَيْتِ كَالأَمْلاكِ حَوْلَ حمَى الـ . ... جَبّارِ طَوْفاً عَلَى الهاماتِ وَالغَمَمِ

وكُنْتُ إذ شاهَدَ الرُّوحُ الجَمَالَ كَمَا ... صَلَّى الخَلِيلُ أصَلِّي تِلوَ مُحتَشِمِ

ثُمَّ المَشاهِدُ صَفَّى القَلْبَ عِزَّتُهُ ... وَالنُّورُ مِنهُ سَعى فِي النَّفسِ وَالإِدَمِ

وذاكَ سَعيٌ مِن طُورالصَّفاءإلى ... جُلمُودِمَرْوَةَ بِالأشواطِ مُختَتَمِي

تُفنى البَقِيَّةُ مِنِّي بَعْد بَاقِيَة ... إفْناؤُها الحُرمَةُ العُظمى مِنَ الحَرَمِ

فَكَانَ آخِرُ أطوارِي لِمُعتَمَرِي ... وَالحِلُّ يَحْكُمُ بِالتَّقْصِيرِ ذا حكم

فَأَوجَبَ الحُبُّ إحرامَ الفناءِ لَهَا ... فَيَالَها عَزْمَةً مِنْ أَوفَقِ العِزَمِ

إذ كُنتُ أُنشأُ إحرَاماً وَمُنشِئُهُ ... ذَاكَ الحَبِيبُ يَقِيناً لَيْسَ ذا غمَمِ

فَسِرْتُ فِيهِ بِهِ حَتّى وَقَفْتُ لَهُ ... فِي مَوْقِفٍ عَرَفات وَسْم ذَا العَلَمِ

وَالجَمْعُ بَعْدَ صَلوةِ الصُّبحِ مُزدَلِفٌ ... وُقُوفُهُ رافِعُ التَّلوِينِ وَاللَّمَمِ

فَذَاكَ بَعْدَ زَوالِ الرُّوحِ فانِيَةً ... وَذا بِنُورِ جَمالِ الذّاتِ مُختَتَمِي

وَعِندَ قُوَّةِ نُورِ الشَّمسِ قدْ فَنِيَتْ ... مِنِّي البَقايا حوىً مُسوّدَةَ الحِمَمِ

طَفِقْتُ أَرمِي وَ لا أَرمِي حصَيَّتها ... لكِنّ رَامِيَها رامِي قوِي صَنَمِي

أَعْنِي أَنانِيَّتِي طَرْداً وَمَا تَبِعَتْ ... فَإِنَّها جَشَمُ الشَّيطانِ لا جَشَمِي

وَكُنْتُ أَذْبَحُ نَفْسِي كَالخَلِيلِ إِذا ... رُؤياهُ صَدَّقَها فِي صُورَةِ الغَنَم

وَكُلُّ مَا تَبِعَتْها مِنْ غَرائِزها ... وَالحَلقُ رَمزٌ إلى إفناءِ ذِي الشِّيَمِ

ثُمَّ اسْتَقَمْتُ بِهِ فِيما أُمِرتُ بِهِ ... فَطُفتُ لِلحَجِّ وَاستأنَفتُ مُنتَزَمِي

مِمَّا فَعَلتُ بِنَفْسِي عِنْدَ مُعتَمِرِي ... وَالرَّمي نَفيُ ثَلاث فِيَّ كَالوَذَمِ

منفِيَّةٌ وَجَدت بِالله ثَابِتَةً ... أَفعَالها أَشْبَهَتْ فِي أَعيُنِ الأُمَمِ

شَتَّان بَينَهُمَا فِي الَحالَتَيْنِ بَدَا ... مِنهَا التَّفاوُتُ بَينَ النّاس فِي القِيَمِ

تِلكَ المَناسِكُ مَقضِيّاتُ صاحِبِكُم ... وَهُوَ الَّذِي مَعَكُم فِي القَاعِ وَالأَكَمِ

لَعَلَّ مَنْ سَمِعَتْ أُذُناهُ قِصَّتَهُ ... يُمْسِي يُكَذِّبُ أوْ يَرْمِيهِ بِالهرَمِ

يَقُولُ كَيْفَ؟ وَمَا حَانَتْ مَواسِمُها ... وَأَيْنَ بَكَّة وَالرُّكبانِ فِي اللُّقَمِ

هَذا وَقَدْ عُذرا إذ كانَ مَا سَمِعوُا ... شيئاً فُؤَادُهُمُ عَنْ فَهمِ ذاك عَمِي

أَكَانَ ذلِكَ حَقّاً لَمْ يَكُونُ وكُنْـ ... ـتُ حِينَئِذ يَقْظانُ لَمْ يَنمِ

كَأَنَّ أَعيُنَهُمْ كَفَّتْ بِأغشِيَة وَسُدّ إذ أَنَّهُمْ عَنْ ذاكَ بِالصِّمَم

يَا أيُّهَا العَارِفُ المَقْضِيُّ حجَتَهُ صَدِّق فَإنَّهُمُ فِي الحَجِّ كَالنِّعَمِ

إلاّ أَوَامِرَ تَشْرِيع قَدْ امتَثَلُوا فَاستنقَذُوامِنْ عَذَابِ النَّارفِي الخِصَمِ

وَاسْتَسعَدُوا بِنَعِيم لا يُكَدِّرُهُ خَوْفُ النّفَادِ وَلاَ التَّنغِيص بالشنم

زُرْتُ الحَبِيبَ إذَا طَهَّرْتُ مُتّبِعاً لهديه قَاضِياً لِلْحَقِّ فِي العظمِ

خُذْهَا عَجِيبَة أَحْوَالِي فَمَا سَمِعَتْ أُذُنٌ نَظِيرَتَها فِي العُرْبِ وَالعَجَمِ

شُكراً لأِنْعُمِهِ حَمْداً لِقِسْمَتِهِ فَقَدْ رَضِيتُ مِنْ الجَبَّارِ بِالقِسَمِ

❊ ❊ ❊

حوار مع
ممثّل الولي الفقيه لشؤون الحج والزيارة
سماحة حجة الإسلام والمسلمين
محمدي الري شهري،
حول خصائص الحج للعام ١٤٢٤ هـ . ق

التقينا ـ و على العادة في كل عام بعد حج التمتع ـ سماحة حجة الإسلام والمسلمين محمدي الري شهري ـ دامت إفاضاته ـ ممثل الولي الفقيه ومسؤول بعثة الحج في الجمهورية الإسلامية، لنوقف قراءنا الكرام على كيفية إقامة مراسم الحج والمشاكل التي تواكب هذه الشعيرة، وتقديم تقرير عن أهم النشاطات والأعمال الثقافية لحج عام ١٤٢٤ هـ ق.

□ ميقات الحج: نشكر سماحتكم على إتاحة الفرصة، ما هو تقويمكم لحج عام ١٤٢٤ هـ ق؟

● **الشيخ الريشهري:** بسم الله الرحمن الرحيم، بعد الشكر والتقدير لجهود الإخوة العاملين في مجلة «ميقات الحج» نحاول الإجابة عن سؤالكم ضمن المحاور التالية:

١ ـ إحصائية الزائرين الإيرانيين طبقاً لآخر التقارير:

بلغت إحصائية الحجاج القادمين من إيران إلى المملكة العربية السعودية في عام ١٤٢٤ هـ ق (٩٦١٠٣) حاجاً، بينهم ما يقرب من (١٨١٣) زائراً أفغانياً، و (١٦٧) زائراً عراقياً، وما عدا هؤلاء من العاملين في خدمة الزائرين، وهم عبارة عن أعضاء البعثة، واللجنة الطبية، والإذاعة والتلفزيون، وقرّاء القرآن الكريم، والطاقم الجوي، وغيرهم من أفراد المؤسسات المعنيّة، ومن العاملين في إعداد البرامج الغذائية المركّزة، ولجان الإشراف على الذباحة.

ومن الجدير بالذكر أن تكاليف سفر (٥٢٧) شخصاً قد دفعت مسبقاً من قبل الجهات المختصة، ونصف تكاليف (٣٠) قارئاً للقرآن دفعت من قبل وزارة الأوقاف والأُمور الخيرية.

وقد بلغت مجموع رحلات الحجاج الإيرانيين (٥٢٢) رحلة، كانت نسبة الرجال فيها (٥٣/٧٨٪)، ونسبة النساء (٤٦/١٣٪)، وأما نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة من مجموع الحجاج فكانت تزيد على (٥٥٪).

هذا، وقد بلغ مجموع الحجاج القادمين من مختلف البلدان إلى السعودية حسب آخر الإحصائيات (١/٤١٩/٧٠٦) زائراً، ومجموع حجاج عام ١٤٢٤ هـ. ق يقرب من (٢/٣٠٠/٠٠٠) زائراً، ومن ذلك يظهر أن ما يقرب من (٨٠٠) ألف حاج هم من أبناء الشعب السعودي.

لقد كشفت بعض الإحصائيات أن دخل الدولة السعودية خلال موسم الحج كان زهاء (٥/٢) ميليارد ريال سعودي، أي ما يعادل (١/٤٥) مليارد دولار.

٢ ـ الشعور بالحاجة إلى منجي:

كان الشعور بالحاجة إلى قائد ومنج واحد للعالم الإسلامي في حج العام الماضي يفوق الإحساس بالحاجة إلى ذلك في السنوات الماضية، فأهم الخصائص التي يمكن بحثها فيما يرتبط بحج عام ١٤٢٤ هـ. ق هو اهتمام العالم الإسلامي وشعوره بمنطقة الفراغ والحاجة إلى قيادة الأُمة الإسلامية، وها نحن نجد هذا الشعور يتزايد وينتشر في العالم شيئاً فشيئاً.

لقد بحثنا موضوع المهدوية في هذا العام مع حجاج سائر البلدان، سواء في لقائهم معنا أو مع أعضاء البعثة، حيث طرح هذا الموضوع أكثر من السنوات السابقة، ومن الملفت للنظر أن ذلك كان ـ وبدون علم مسبق منّا أو تنسيق ـ محور أبحاث أكثر الاجتماعات و الملتقيات، وأيضاً محور أبحاث بعثة قائد الأمة على المستوى العالمي.

٣ ـ قراءة دعاء كميل بين حرم رسول الله و أئمة البقيع ^:

الأمر الآخر الذي يعتبر من خصائص حج العام الماضي هو أداء مراسم

دعاء كميل على أحسن وجه، والسبب في ذلك شعور الحكومة السعودية بالخطر تجاه نشاط الوهابيين المتشددين، حيث شدّدت الحكومة الرقابة تحسّباً للأحداث المحتملة، مما أدى إلى انخفاض عدد المشاركين من الحجاج غير الإيرانيين، حتى أن البعض كان يقف جانباً وعلى بُعد من محل إقامة الدعاء، لكننا شهدنا حضوراً ومشاركةً أكثر للحجاج في الأدعية الأُخرى، لقد أوضحت أحداث دعاء كميل في الحج الماضي أن بين الحركة الوهابية والمسؤولين السعوديين في هذا الشأن اختلافاً واضحاً.

وقد قررت جماعة من الوهابية في أول مراسم دعاء كميل لحجاج بيت الله الحرام (المدينة بعد الحج) ـ والذي يعتبر في الحقيقة المراسم الثالثة لهذا الدعاء في هذا البلد الطيب ـ مداهمةَ المشاركين في هذه المراسم، لكن الحكومة السعودية واجهتهم وقبضت عليهم، فعلى الرغم من وجود بعض المخاطر تمكّنا ـ وبحمد الله ـ من إقامة دعاء كميل على أربع دفعات ولجميع المشاركين في مراسم الحج (المدينة قبل الحج، والمدينة بعد الحج) وذلك بمشاركة عالية وحضور فائق ومعنوية خاصّة من جانب الحجاج.

٤ ـ مراسم البراءة من المشركين:

كانت مراسم البراءة من المشركين عام ١٤٢٤ هـ. ق والتي أقيمت في صحراء عرفة من أكثر المراسم عظمة وجزالة، لكن الحكومة السعودية لم تكن قد سمحت لنا عشية عرفة في إعداد المخيمات حتى طلوع الفجر لإقامة هذه المراسم، ولكنّا سرعان ما عدنا إلى عرفات وقمنا بتشييد الخيام لغرض مراسم البراءة.

كانت مشاركة الحجاج غير الإيرانيين قياساً بمراسم البراءة في الأربعة عشر سنة الماضية ـ وهي مدّة استلامي لمسؤولية البعثة ـ أكثر حماساً و مشاركة.

٥ ـ قراءة بيان قائد الثورة الإسلامية:

تعالت الهتافات ضد أمريكا وإسرائيل لدى قراءة بيان قائد الثورة الإسلامية باللغة الفارسية والذي ترجم إلى اللغة العربية أيضاً، ومن الخصائص الأُخرى لحج عام ١٤٢٤ هـ ق زيارات الحجاج غير الإيرانيين الكثيرة والواسعة النطاق لمقرّ بعثة السيد القائد، حتى أن المقرّ كان يضيق بالحاضرين أحياناً، ولم نجد الفرصة للقاء زائرين جدد، وهذا الأمر يدل على أنّ الجمهورية الإسلامية في إيران، صارت نقطة الانطلاق وأمل المسلمين، وأنّ هذا الأمل يتزايد يوماً بعد آخر.

٦ ـ لقاء مسؤولي البعثات الأُخرى:

التقينا ستة عشر شخصاً من مسؤولي البعثات من سائر البلدان، أمثال وزير الحج الجزائري، ووزير الحج والأوقاف اليمني، ومسؤولي البعثات في أفغانستان، وعمان، والعراق، وحزب الله، وكانت اللقاءات مفعمة بجوٍّ من الودّ والمحبة، حيث تناولنا معهم الأُمور ذات العلاقة بين الجانبين.

٧ ـ لقاء الشخصيات العلمية والسياسية البارزة:

كان لنا لقاءات مفيدة مع عدد من الشخصيات العلمية والسياسية سواء في داخل البعثة أو خارجها، فقد التقينا الشيخ صالح الحصين مسؤول شؤون الحرمين، وتحدثنا معه حول ظاهرة العام الماضي، وهي ترجمة خطب وكلمات بعض أئمة الجماعات والتي تضمّنت بعض الإهانات للشيعة، بل وجَّه بعضها الإهانة لشخص رسول الله ‘، وقد طلبت التصدي بحزم لمثل هذه الأمور، كما التقينا وزير الحج اليمني، وهو شاب فاضل، له معرفة بأمور بلدنا، وعلى وعي واطلاع علمي جيد.

وعلى أيّ حال، إنّ بإمكان مثل هذه اللقاءات أن تكون مفيدة ومجدية لكلا البلدين.

٨ ـ الملتقيات:

عقدنا في حج العام الماضي (١٢) ملتقى، كان زهاء النصف منها على مستوى عالمي، وعلى ضوء التقارير الواصلة إلينا، كان عدد المشتركين في هذه الملتقيات ما يقرب من الأربعة آلاف شخصية من مختلف الممالك والأقطار.

٩ ـ نشاطات قسم المذهب السني:

كان لقسم المذهب السني في البعثة نشاطات فاعلة وقوية، حيث كانت لهذا القسم ـ وبالإضافة إلى اللقاءات الإعلامية العادية ـ لقاءات خاصة مع شخصيات علمية ودينية سعودية وغيرها من مختلف البلاد الإسلامية.

١٠ ـ تفعيل نشاط الحركة الوهابية:

شدّدت الحكومة السعودية من الرقابة الأمنية في حج العام الماضي خوفاً من مداهمة المتشددين للحجاج، فكان السلفيّون تحت ضغط الدولة السعودية، ولم يواجه الحجاج الإيرانيون في هذا المجال أيّة مشاكل تذكر.

على أنّ السلفيين ضاعفوا من نشاطهم ضد الشيعة عن طريق توزيع الكتب والنشريات والأشرطة، إلاّ أنّهم مع ذلك لم يتمكّنوا من خلق مشاكل لحجاجنا، فكان موسم الحج لعام (١٤٢٤) الموسم الوحيد الذي لم يتحدث فيه خطباء مسجد النبي والمسجد الحرام ضد الشيعة، فبعثت رسالة شكر عن طريق سفيرنا في السعودية إلى السيد الأمير نايف وزير الداخلية للمملكة العربية السعودية جاء فيها: إنّ هذه السنة هي السنة الأولى التي لم يَمس الخطباء في صلاة الجمعة المذاهب غير الوهابية بسوء.

١١ ـ أصداء نجاح حزب الله ـ لبنان:

لقد كانت لنجاحات حزب الله لبنان على صعيد تحرير الأسرى والمعتقلين اللبنانيين والفلسطينيين؛ أصداء إيجابية واسعة في الحج الماضي، كما أدى بث

احتفالات تبادل الأسرى إلى تعميق الارتباط بحزب الله والمقاومة الإسلامية في لبنان أكثر فأكثر.

١٢ ـ أصداء أخبار الانتخابات النيابية (الدورة السابعة):

كان لأخبار انتخابات مجلس الشورى السابع في إيران والخلاف الناجم عن ذلك آثارها السيئة في نفوس الحجاج، خاصة المتابعين منهم لتطور الاُمور السياسية في إيران، حيث كانوا يتساءلون عن سرّ الاختلاف والأسباب الباعثة لذلك.

١٣ ـ الحضور الفاعل للزائرين العراقيين:

من خصائص حج سنة (١٤٢٤ هـ. ق) الحضور الفاعل للزائرين والشيعة العراقيين، والذي يعتبر فريداً من نوعه بعد سقوط صدام، حيث قامت المملكة العربية السعودية ـ كما قيل ـ بدفع بعض تكاليف هؤلاء الزائرين.

لقد كان الحجاج العراقيون في السنوات الماضية يخضعون للرقابة المشددة، حيث كان عناصر النظام يتابعون علاقات الحجاج العراقيين مع غيرهم بدقة، لكنهم في هذا العام شعروا بحرية مطلقة.

١٤ ـ مشاكل قرب البقيع:

كنّا نواجه في حج العام الماضي بعض المشاكل قرب البقيع واُحد، لكن حيث لم يكن لعناصر الأمر بالمعروف أو بالأحرى: السلفيين حضوراً فاعلاً سنح ذلك للحجاج أداء شعائرهم بحرية تامة، وبالطبع كان لبعض الزائرين الإيرانيين وغيرهم سلوك ابتزازي حيث كانوا ـ ومن خلال الصلاة داخل وخارج المقبرة ـ يقدّمون الذرائع للسلفيين، مما دفعنا للتفكير في إيجاد حلّ لهذه المشكلة في السنوات القادمة.

١٥ ـ إرسال (١٤٥) إمرأة مبلّغة:

لقد استفدنا في حج عام (١٤٢٤) ـ ولأول مرة ـ من الخدمات الثقافية

لبعض المرشدات لفئة خاصة من الحجاج، أي النساء، فقد وردت تقارير حاكية عن النجاح الباهر ـ والذي فاق تصورنا ـ الذي حققته المرأة المبلّغة، وها نحن نبارك جهود الأخوات والحوزات العلمية، ونسأل المولى القدير لهم المزيد من التوفيق.

لقد كان لهذه الأخوات في مكة والمدينة برامج إرشادية وتعليمية أيضاً، ونحن نأمل من خلال وضع خطة خمسية ـ على مدى خمس سنوات ـ إعداد المرأة المرشدة للقيام بدورها في جميع رحلات الحج.

لقد استقرّ عدد من الأخوات المرشدات في مقرّ البعثة لتلقي المسائل الشرعية المرتبطة بالمرأة والإجابة عنها، وكنّ قد حضرن أيضاً في مسجد الشجرة ساعة رحيل الحجاج إلى مكة؛ لغرض الإجابة عن أسئلة النساء.

١٦ ـ الإجابة عن المسائل الشرعية:

كان لأعضاء لجنة الاستفتاء المستقرة في بعثة السيد القائد حضور فاعل ومستمر منذ بداية شعائر الحج وحتى انتهائها، حيث كانوا ـ وطبقاً لبرنامج مدروس ـ يجيبون عن أسئلة السائلين في جميع مواقيت الحج والمسجد الحرام والمشاعر، حتى أن الشيعة من العراقيين والأفغان وسائر البلدان الأُخرى كانوا يرجعون في مسائلهم إلى لجنة الاستفتاء ويتلقّون الإجابة منها.

١٧ ـ عمل الرابطين بين البعثة والمبلّغين:

من خصائص حج عام (١٤٢٤) الأُخرى تقويم الأعضاء في البعثة لأعمال علماء الدين ومساعديهم في مكة والمدينة، حيث تمَّ عن طريقهم اختيار (٧٦) عالماً دينياً، رفعت معاونية شؤون علماء الدين أسماءهم إلينا، حيث نأمل الاستفادة التامة من هؤلاء الأفاضل في المستقبل.

١٨ ـ اللجان الإرشادية:

بذلت لجان الإرشاد في حج عام (١٤٢٤) جهوداً قيّمة، حيث تمَّ تشكيل

هذه اللجان في إيران، وقد وزّعت عليهم كراريس تتعلق بالعمل الإرشادي ليمارسوا على ضوئها أعمالهم الثقافية، ويساعدوا علماء الدين ومسؤول كل رحلة وزائريها، وكانت نشاطاتهم جيدة ومرضية للغاية.

تتضمن هذه اللجان (١١٠) أشخاص يملكون شهادة الدكتوراه، و (١٩٨) شخصاً يملك شهادة الماجستير، و (٩٣٣) شخصاً يملك شهادة البكالوريوس، و (١٠٣) من طلاب العلوم الدينية، وإنّي لأرى من اللاّزم أن نشكر مساعي جميع المتعاملين مع لجان الإرشاد.

١٩ ـ استقصاء آراء الزائرين:

تمشياً مع برنامج العام الماضي، تمّ توزيع ملزمة في ثلاثة عشر صفحة تتضمّن (٢١٥) سؤالاً للزائرين، مما يمكن لحصيلة الإجابات عليها التأثير في اتخاذ السبل المناسبة لمعالجة المشاكل في السنوات القادمة.

٢٠ ـ مشاركة نخبة من قرّاء القرآن الكريم في الحج:

من جملة النشاطات الثقافية لعام (١٤٢٤) مشاركة نخبة من قرّاء العالم الإسلامي في مراسم الحج، حيث أُجريت مراسم تلاوة القرآن في المسجد الحرام.

ومن تلك النشاطات أيضاً توزيع كراريس إرشادية على علماء الدين لغرض الإجابة عن شبهات الفرقة الوهابية، وعرض تقرير عن كيفية حج المواطن الإيراني قياساً بحج المواطن المسلم من سائر البلدان، وتشكيل الجلسات داخل البعثة للزائرين الإيرانيين، وغير ذلك.

٢١ ـ التغطية الإعلامية الشاملة لمراسلي الجمهورية الإسلامية و... :

تعتبر التغطية الإعلامية القويّة والمؤثرة التابعة لمراسلي الجمهورية الإسلامية والإذاعة والتلفزيون من خصائص حج العام الماضي، حيث انعكست آثارها المعنوية في أرجاء البلاد، وأني لأتقدم بالشكر لما بذله جميع

هؤلاء الأعزاء من جهود في هذا المجال.

إن الرحلات الجيّدة والمشتملة على الطبقة المثقفة بحاجة ماسة إلى «نشرية الزائر».

لقد قمنا بتجهيز رحلة أساتذة الجامعات بالحاسوب والانترنت، لكننا نشعر بأنّه لابد من مزيد اهتمام بهذه الطبقة في السنوات المقبلة، وأنّه لابد من تعميم الخدمات الالكترونية والأجهزة المتطورة إلى جميع الطبقات.

٢٢ ـ النقل المباشر للزائرين إلى المدينة و...:

استطاع المسؤولون التنفيذيون نقل (٤٦٤٣٢) زائراً بشكل مباشر إلى المدينة، ونقل (٤٧٩١٨) زائراً ـ ممّن كان في المدينة بعد الحج ـ إلى إيران.

هذا وقد لعب ما يقرب من ٦٠٪ من منازل الزائرين الواقعة في المنطقة المركزية والفنادق المحيطة بالمسجد النبوي الشريف دوراً في تنشيط الحالة المعنوية لدى الزائرين.

٢٣ ـ الطهي المركزي:

يعتبر الطبخ المركزي للطعام للذين نزلوا الفنادق المحيطة بالمسجد النبوي الشريف في المنطقة المركزية، ومنح رخصة طهي الطعام داخل القوافل؛ خارج المنطقة المركزية، وأيضاً التطبيق المنتظم لبرنامج الذبح، وذبح ٦٢٪ قرباناً يوم عيدالأضحى، و ٣٨٪ في اليوم الحادي عشر من ذي الحجة، كلّ ذلك يعتبر من خصائص حج العام ١٤٢٤ هـ. ق

٢٤ ـ السلبيات والنواقص وبعض المشاكل:

واجهنا في حج عام ١٤٢٤ بعض النواقص في الجانب الخدمي، من قبيل الحمل والنقل داخل المدينة، عدم كون بعض الأبنية مناسباً، وجود بعض النواقص في قسم التموين، التأخير للرحلات الجوية، وعدم توفّر الأمور الخدمية المناسبة للزائرين و... ، هذه وغيرها كانت من مشاكل الحج في العام الماضي، والتي نأمل رفعها والحدّ من تكررها بوضع الخطط المناسبة.

□ ميقات الحج: ذكرتم بعض المشاكل والنواقص، هل فكرتم في إيجاد حلول مناسبة لذلك؟

● **الشيخ الريشهري:** كما ذكرنا لكم أنه على الرغم من النجاح الذي حققناه في حج العام الماضي واجهنا بعض المشاكل والنواقص، وهي عبارة عن:

أولاً: ازدحام الحجاج في بعض خطوط باصات الحمل والنقل داخل

مكة، خصوصاً في موقف نفق باب علي، فقد كان ازدحام الحجاج شديداً جداً، والسبب في ذلك عدم الانضباط، حيث كان بعض الزائرين من باقي الدول يرتقون هذه الباصات فيضاعفون من المشاكل، كان تردد وسائط النقل العامة في منطقة المسجد الحرام يضاعف أيضاً من المشكلة، من اليوم الرابع وحتى اليوم الثامن من ذي الحجة، وذلك بسبب شدة ازدحام الحجاج.

هذه هي مشكلتنا في كل عام، والسبب الرئيس فيها تزايد عدد الحجاج، وفقدان الإدارة الصحيحة للسير، وهي مشكلة لا علاقة لنا بها.

إنّ هناك مساعي وجهود حثيثة من قبل البعثة ومؤسسة الحج، الغرض منها التعرف على بعض المشاكل من أجل رفعها في السنوات القادمة، لكن مشكلة الازدحام مشكلة قائمة لا يمكن حلّها حتى على مدى السنوات القادمة.

ثانياً: كانت بعض منازل مكة تعاني من نواقص، لكننا قررنا بعد دراسة الموضوع دفع مبالغ للزائرين المقيمين فيها تعويضاً لهم بذلك عن النقص الحاصل.

ثالثاً: الضعف الذي كانت تعاني منه بعض فروع التموين الغذائي، فقد برزت مشكلة في الألبان والمشروبات الغازية مثلاً، لكنها سرعان ما ارتفعت بجهود بذلتها البعثة ومعاونية التفتيش ومؤسسة الحج والزيارة.

رابعاً: التأخير الحاصل في الخطوط الجوية أو عدم تقديم الخدمات المناسبة في بعض الرحلات الجوية، وقد تقدمنا إلى المسؤولين في هذا المجال بجملة ملاحظات.

بالطبع، لا تعدّ هذه المشاكل شيئاً أمام الخدمات الكثيرة التي تقدّم إلى الزائرين، لكن في الوقت نفسه لابدّ من معالجتها لتحاشي ارتكابها في السنوات المقبلة.

□ ميقات الحج: يبدو أنّ معاملة الدولة السعودية للإيرانيين بدأت تتحسن قياساً بالحالة السابقة، وأنّ الخناق قد ضاق على الحركة الوهابية، فما هو نظركم في ذلك؟

● **الشيخ الريشهري:** كانت معاملة الدولة السعودية في حج العام الماضي ممتازة قياساً بالسنوات الماضية، فقد كان لهم تعامل طيب وحازم في إقامة مراسم دعاء كميل، على العكس من الحركة الوهابية والسلفيين، حيث كانت معاملتهم قياساً بالماضي أشد وأغلظ.

والسبب في ذلك ـ حسب تقديري ـ واضح، وهو أنّه كلّما استوثقت العلاقات بين الجمهورية الإسلامية الإيرانية والدولة السعودية أكثر، شعر الوهابيون بعزلة أكثر، حتى أنّ ذلك ينعكس سلباً على تصرفاتهم، حيث تسعى الحركة لابتزاز الإيرانيين والتعامل معهم بشدّة، ولعلّ ذلك يدعو الإيرانيين إلى المواجهة، ومن ثمّ يؤثر على العلاقات بين إيران والدولة السعودية.

لذا، فنحن ندعو الزائرين الإيرانيين، خصوصاً المسؤولين في مؤسسة الحج والزيارة، إلى الحذر وعدم تقديم الذرائع للوهابيين في ارتكاب أي عمل يصبّ في صالحهم.

□ ميقات الحج: برزت عدة مشاكل في العمرة من السنة الماضية بسبب مشاركة بعض الشركات في تقديم الخدمات إلى المعتمرين، فما هي الإجراءات المتخذة في السنة الحالية لعدم تكرر مثل ذلك؟

● **الشيخ الريشهري:** لم تتمكن بعض الشركات التي تعمل تحت رعاية

مؤسسة الحج والزيارة من تقديم الأُمور الخدمية المطلوبة للزائرين، مما أدى إلى عدم ارتياح جماعة من المعتمرين، وذلك لارتفاع الأسعار، وعدم التغطية الكافية والمطلوبة للزائرين، وهذا الأمر يعني أنّ رقابة مؤسسة الحج والبعثة لو ارتفعت فإنّ ذلك لا يؤدي إلى خفض الأسعار فحسب بل سوف يزيد من المشاكل، والسبب فيه واضح، وهو أن مؤسسة الحج لا تطمح إلى الكسب والربح، بل تسعى إلى أخذ الأسعار المناسبة لأداء العمرة، وتقديم خدمات أفضل إلى الحجاج لكسب المزيد من رضاهم.

إنّني أقترح على مؤسسة الحج تقديم تقرير عن المشاكل والصعوبات التي كان يعاني منها المعتمرون الذين ذهبوا إلى العمرة على نفقاتهم الخاصة ـ ولطالما كرر ذلك السيد رئيس قنصلية الجمهورية الإسلامية في جدّة ومكاتب ممثلية الحج والزيارة في مكة والمدينة ـ ليتمّ نشرها في مجلة «ميقات الحج» ليطلع عليها عامة الناس.

كما أقترح ترتيب لقاءات خاصة مع الزائرين الذين عانوا من تلك المشاكل، ليكون ذلك رادعاً للذين يتخذون المواقف ضد مؤسسة الحج والزيارة.

ونحن بدورنا قدّمنا تقريراً في جميع ما ذكرناه آنفاً إلى السيد القائد سماحة آية الله الخامنئي، فأمر سماحته بأن يكون العمل في كل ما يرتبط بأُمور العمرة مركزياً كما هو الحال في الحج والزيارة، والتصدي القانوني لكل من يتخلّف ويعمل على خلاف ذلك.

يذكر أنّ مؤسسة الحج والزيارة قد تحمّلت الكثير من المشاكل عبر هذه القنوات، ولكنّها لا تزال صامدة لتتمكن من أداء وظائفها على أفضل وجه، ونحن نأمل عدم تكرر مشاكل العام الماضي، ونرجوا لمؤسسة الحج والزيارة

تهيئة أجواء هادئة وجيدة للمعتمرين في السنة القادمة.

□ ميقات الحج: أصدرت الدولة السعودية بياناً يسمح بالتشرّف بالحج كلّ خمس سنوات مرة واحدة، ما هو رأيكم في ذلك، وما هي وصيتكم للناس؟

● **الشيخ الريشهري:** لا نعلم إلى الآن أن قرار الدولة السعودية في هذا الشأن هل هو قطعي أم لا؟ لكن لو نفّذت السلطات السعودية ذلك فهو في رأينا عمل جيّد. لو يفسح الذين تشرّفوا بالذهاب إلى الحج المجال أمام المستطيعين ـ ممّن لم تسنح له الفرصة بسبب العدد المحدود ـ للتشرف بالحج، فانّ ذلك عمل مفيد قطعاً، ليس على مدى خمس سنوات بل إلى الأبد.

لقد سألت في لقائي السيد غلام الله وزير الحج الجزائري، فقلت له: كيف تتعاملون مع هذه المشكلة؟ فأجاب: لقد تمكّنا من إرسال ثلاثين ألف حاج من أصل مائة وثلاثين ألف شخص، لذا نحن في كل عام نرسل الحاج على أساس القرعة، والمشاركون في القرعة هم ممن لم يذهب إلى الحج قط، وليس لمن ذهب مرة واحدة إلى الحج حق المشاركة في صناديق الاقتراع، والأمر الملفت للنظر أنّ القرعة لو لم تصب اسم الشخص المتقدم بالطلب فإنّه يمنح في القرعة الثانية سهمان، فإن لم تصب ففي القرعة الثالثة ثلاثة أسهم، فإن لم تصب القرعة اسمه أبداً فانه يذهب إلى الحج بلا قرعة.

وباعتقادي، إن هذه السبل أقربها إلى العدل، وقد ورد في بعض الأخبار أن أول عدل يقيمه الإمام المهدي # بعد ظهوره في المسجد الحرام أنّه لا

يسمح بأداء الطواف المستحب حتى يتمكن أهل الطواف الواجب من أداء طوافهم، فإنّه # إذا منع من الطواف المستحب فإنّه سوف يمنع عن الحج المستحب بطريق أولى، إلاّ أن تكون الإمكانات بنحو يتمكّن عامة الناس معها من اغتنام فرصة الحج، وعليه، فإذا كانت حصة الجمهورية الإسلامية (٩٠) ألف حاج، فلابد من تخصيصها بمن لم يؤدّ حجه الواجب، ولا شك أن الذين ذهبوا لأداء الحج الواجب بإمكانهم فسح المجال أمام الآخرين لأداء حجهم الواجب، ويأتوا بدل ذلك بالعمرة.

يذكر أن لدينا أعداداً كثيرة من المتقدمين بطلب الحج من دون أن نشترط عليهم شيئاً سابقاً، وقد لا نتمكن في الوقت الحاضر من القيام بذلك، لكن يمكننا اتخاذ التدابير اللازمة بهذا الصدد في المستقبل، وإن كان القرار النهائي في هذا المجال بيد الدولة ومسؤولي الحج والزيارة، لكنه لو وضع في المستقبل مثل هذا القانون فإن تنفيذه سوف يكون أمراً سهلاً.

□ ميقات الحج: مات في حج العام الماضي في رمي الجمرات عدد من الزائرين غير الإيرانيين، ما هو تقويمكم لهذه الحادثة؟ وما هي الحلول المقترحة لذلك؟

● **الشيخ الريشهري:** فيما يتعلق برمي الجمرات هناك مشكلتان أساسيتان:

الأولى: قلّة الإمكانات في منى والجمرات، فعلى الرغم من الجهود المبذولة في السنوات الأخيرة لم تلب الإمكانات الموجودة حاجة هذا الجمع الغفير.

الخطوة الأولى التي يجب اتباعها في حل هذه المشكلة تكمن في فصل طرق السيارات عن طرق المشاة، أو منع اقتراب السيارات في أيام التشريق من الجمرات.

لو أمكنت الاستفادة من الإمكانات الموجودة في العالم باتجاه فتح أنفاق تحت الأرض لما وجد هذا الزحام الذي لا يحتمل.

وأيضاً لو منع الزائرون من النوم في الطرق، ومن الجلوس على طريق الجمرات لكانت المشكلة أقل مما هي عليه الآن قطعاً.

أمّا مشكلة التجمّع الشديد للزائرين فيمكن حلّه بإيجاد أبنية وعمارات مرتفعة وذات طبقات متعددة، فما أفتى به بعض علماء السنة من عدم جواز بناء عمارات سكنية في منى كلام غير صحيح، ولا يستند إلى دليل تام.

نعم، تمّ بحث الجمرات أخيراً لكنه لم يتم الاتفاق على عدد الطوابق في البناء، ومن الطبيعي لو أنّ ذلك بلغ مرحلة التنفيذ لقلّل من المشكلة إلى حد ما.

وهناك اقتراحات أُخرى أيضاً مثل أن يكون الذهاب إلى الجمرات على شكل جماعات كما في ترتيب الخيام حسب المناطق، لكن ما لم يخضع ذلك للبحث والدراسة العلمية والدقيقة من قبل المختصين لا يمكن للشخص أن يبدي رأيه النهائي فيه.

إن على فقهاء السنة الإفتاء بسعة الوقت كما يقول به فقهاء الشيعة، بأن يسمحوا بالرمي من طلوع الشمس إلى الغروب ليتم تقسيم الزائرين على طول النهار ويقل الازدحام.

إن موت الكثير من الزائرين في رمي الجمرات أمر لا يمكن تبريره والدفاع عنه، ولا بد من إيجاد حلّ ذلك.

□ ميقات الحج: تحاول قوات الشرطة السعودية استخدام مختلف الطرق والوسائل لغرض استقرار الحجاج في المشعر حيث يؤدي ذلك إلى مشاكل كثيرة للحاج، هل لديكم حلول لذلك، و هل أن هذه المشاكل ترفع ـ عن طريق البعثة ومؤسسة الحج ـ إلى المسؤولين السعوديين؟

● **الشيخ الريشهري:** في رأيي يمكن حلّ هذه المشكلة إلى حد ما إذا كانت هناك إدارة صحيحة، وتمّ استخدام السبل المتطورة في تنظيم حركة السيارات وكيفية توقفها.

من الطبيعي توقف عدد كبير من السيارات على مشارف المشعر الحرام مما يسبب مشاكل في السير، لكن من الممكن استخدام وسائل أخرى للنقل مثل القطار داخل المدينة، فهل من ضرورة تدعو إلى الإتيان بهذا الكم الهائل من السيارات إلى محل أداء الشعائر لكي نصنع بأنفسنا هذه المشكلة في السير؟ إن معاجلة مثل هذه المشاكل لها علاقة بطريقة الإدارة.

بدورنا، نقوم في كل سنة باستقصاء المشاكل وجمعها، ومن ثمّ إرسالها إلى وزارة الحج السعودية، وقد كان ذلك مؤثراً أحياناً، ومن المقرر في هذه السنة استقصاء المشاكل وإرسالها إلى الوزارة المذكورة.

□ ميقات الحج: ماهي الثغرات الثقافية للحج والعمرة في رأيكم؟

● **الشيخ الريشهري:** بإعتقادي إن أهم ما تواجهه جميع البلدان الإسلامية في الجانب الثقافي هو عدم الاطلاع والمعرفة الكافية بما يرتبط

بأسرار الحج وفلسفته، فإن الكثير من المسلمين لا يعرفون ما هو الهدف من الذهاب إلى الحج، كما لا يعرفون الهدف من التلبية والطواف و... وهذا بحاجة إلى إعلام قوي وإلى عزم وإرادة ثقافية عالمية جادة، ولا نرى ـ وللأسف ـ لكلّ ذلك عيناً ولا أثراً بين هذه الدول، ذلك أن الكثير من قادة العالم الإسلامي يرى أن مصلحته الشخصية هي بقاء الأُمة في الجهل وعدم المعرفة، كما أنه يعلم أن الحج لو فسّر بالمعنى والمفهوم الحقيقي له لواجه بسببه المستكبرون الكثير من المشاكل.

إذن لا بد في الخطوة الأولى من تفهيم المجتمع المسلم فلسفة الحج، وفي الخطوات الأُخرى ترميم الثقافة في كافة المجالات، مثل ثقافة الصلاة أول الوقت، ثقافة الزيارة الصحيحة، ثقافة العشرة الصحيحة، ثقافة الاهتمام بصلاة الجماعة، الاهتمام بالقرآن و... فإن هذه الأُمور لو لم تكن بالشكل الثقافي المطلوب، لكان الأمر على ما نراه أحياناً، فمثلاً نرى البعض في وقت صلاة الجماعة يجلس على أعتاب المحلاّت، أو لا يذهب إلى الصلاة، أو يدور في الأزقة والطرقات بلا هدف، فالشخص الذي اعتاد في إيران على عدم الذهاب إلى صلاة الجماعة أو عدم الصلاة أول وقتها لا يمكن التأثير فيه عبر محاضرة أو محاضرتين، كذلك العمل الثقافي لا بد فيه من تضافر جهود مؤسسات الدولة ومراكزها الثقافية كافّة.

وهناك مشكلة لا بد من حلّها عن طريق الحوزات العلمية، وهي اختلاف فتاوى مراجع التقليد، وذلك ليتمكن علماء الدين في البعثة من الإجابة عن الأسئلة الشرعية للزائرين، ولكي لا تنقدح الشبهات ـ لا سمح الله ـ في أذهان عامة الناس، خصوصاً الطبقة المثقفة.

وهناك أيضاً مشكلة ثقافية أساسية شغلت بعض الزائرين كثيراً وهي قضية شراء الهدايا والحاجيات، فإنّ ذلك وإن كان أمراً مستحباً في الشرع،

إلاّ أنّ الإفراط فيه غير صحيح، إذ قد يقترن أحياناً وقت هذه المشكلة مع الصلاة أول الوقت، وقد رأينا أن ذلك يشوّه صورة الشيعة وإيران الإسلامية.

بالطبع، هؤلاء الأفراد ليسوا بالكثيرين، إلاّ أنّهم على قلّتهم بإمكانهم القدح بشخصية مجموع الحجاج الإيرانيين.

□ ميقات الحج: للحج ثقافة عظيمة وشاملة، إلاّ أنّها لم تستنفذ تماماً، ماهي السبل المناسبة المقترحة في سبيل توسعة رقعة الإستفادة من ثقافة الحج وتأثير هذه الفريضة في نفوس الحجاج؟

● **الشيخ الريشهري:** من أجل اغتنام الفرصة والاستفادة التامة من ثقافة الحج والتي هي في الحقيقة واسعة ومعطاء لابد أولاً من العزم والإرادة الجادة لجميع البلدان الإسلامية في هذا المجال، لأننا لو وضعنا لأنفسنا برنامجاً معيّناً فلن يكون الحال أفضل مما عليه الآن، بل لا بد من المشاركة الفاعلة لجميع البلدان في ذلك.

أما على المستوى الداخلي للبلاد فإن بعثة السيد القائد بما فيها من إمكانات ومكانة و كوادر فاعلة لا تستطيع الاستفادة من ثقافة الحج أكثر من ذلك، وإن كان ما قمنا به إلى يومنا هذا بالمستوى المطلوب، والحمد لله.

عندما يتعذّر على البعثة استخدام موظفين لها فإن من الطبيعي أن تغدو عاجزة عن الاستفادة المطلوبة من الحج وكما تريد.

بل حتى لو توافرت للبعثة الإمكانات اللازمة فلا هي ولا مؤسسة الحج ستكون قادرة على الاستفادة التامة من ثقافة الحج، لما يتطلبه ذلك من جهود مكثفة للمسؤولين الثقافيين لتتجسّد نتيجة أعمالهم وتظهر في الحج.

ثم إن هناك مسألةً لا بد من الإشارة إليها، وهي المبالغة أحياناً في الإعلان عن الأرقام، إذ البعثة ـ بسبب الضعف الموجود في قسم العلاقات العامة ـ عاجزة عن إعلان ما قامت به من نشاطات وبيانه للأُمة، وإنّي اعترف بهذا الضعف، حتى أن البعض قد يتقدم لنا ببعض المقترحات وعندما نقول له: إننا فعلنا ذلك أو قمنا بطبع الكتاب الفلاني يتعجب، ويقول: إنه لم يكن يعلم بذلك.

□ ميقات الحج: مضى على افتتاح طريق العتبات المقدسة مدة وقد تشرّف الكثير بزيارتها، ماهو السبب في عدم أخذ مؤسسة الحج والزيارة بزمام ذلك؟

● **الشيخ الريشهري:** لهذه القضية أسباب عديدة، نذكر منها:

السبب الأول: غموض الوضع السياسي والأمني في العراق، وما دام لم

يحن الوقت لاستلام الحكومة الشرعية ولم تتسلم مهامها فالوضع سوف لا يكون أفضل مما عليه الآن.

السبب الثاني: التصرف اللاّمسؤول لبعض المؤسسات الداخلية.

لقد اتضح تدريجياً وبسبب الأحداث والمشاكل التي واجهها زائرو العتبات المقدسة أنه لو لم تكن الرحلات تحت رعاية وإشراف مؤسسة الحج والزيارة، فإنه سوف يهدد الزائرين الكثير من المشاكل الثقافية والسياسية والأمنية.

□ ميقات الحج: هناك من يقول بأن زيارة العتبات المقدسة في العراق يجب أن تكون كزيارة الإمام الرضا عليه السلام في مشهد، هل هذا الكلام صحيح، علماً بأن العراق لا يملك الإمكانات اللازمة، كما أنه فاقد للأمن وغيره من الأمور؟

● **الشيخ الريشهري:** لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً قطعاً؛ لأن زيارة عتبات العراق تختلف عن زيارة مشهد تماماً، فنحن بلدان مستقلان لهما نحوان من السياسة، سواء في الحاضر أو المستقبل، والوضع في كلٍّ منهما تابع لقوانين ذلك البلد. صحيح أن في العراق ضرائح ستة من الأئمة المعصومين^ وأن في النجف وكربلاء وغيرهما الكثير من الشيعة، إلاّ أن لكل بلد ـ في الوقت نفسه ـ ضوابطه الخاصة به.

من جهة أخرى، فإن الوضع الاقتصادي في العراق لا يسمح بتقديم الخدمات المناسبة للحشد الكبير من الزائرين الإيرانيين، فنحن في مكة والمدينة ـ مع ما فيهما من إمكانات كثيرة ـ عاجزون عن إرسال الحجاج بدون ضوابط وبلا حدود، فكيف يمكن إرسالهم هكذا إلى العراق وهو فاقد للصحة والأمن وغيرهما من الإمكانات؟!

إذن، فزيارة العتبات في العراق تختلف عن الذهاب إلى مشهد، إذ لا بد من ملاحظة الوضع الاقتصادي والثقافي والسياسي للعراق بدقة وأخذ ذلك بنظر الاعتبار.

□ ميقات الحج: تعتبر حالة الرفاه في الزيارة إحدى أهم آفات سفر الحج والزيارة، ما هي نشاطات مؤسسة الحج والزيارة في هذا الصدد؟

● **الشيخ الريشهري:** توفير الرفاه والراحة في سفر الحج أمر جيّد وحسن، ليتمكّن الزائر من أداء أعمال الزيارة ومناسك الحج بفراغ بال تام، وقد ورد في الروايات أن على الذي يريد السفر إلى الحج أن يحمل معه طعاماً جيداً وغيره من الإمكانات، و أن يهتم بأصدقائه ورفقائه في السفر.

إن الشيء القبيح في هذا السفر هو الإسراف، ولا يمكن التوسل بالقوة من أجل إيجاد حالة الاعتدال فيه، بل لا بد من أخذ رأي المختصين في ذلك من أجل الخروج بأفضل طريقة للحدّ من الإفراط والإسراف.

□ ميقات الحج: يظهر أن أبناء شعبنا يميلون إلى السّوق وشراء الهدايا أكثر من الحد المتعارف، ما هو رأيكم في ذلك؟ وما هي سبل الحل المقترحة في ذلك لغرض إيجاد حالة الاعتدال؟

● **الشيخ الريشهري:** رأينا في مسألة شراء الهدايا واضح، فإننا نعتقد أن وقت الزائر يجب اغتنامه والاستفادة منه في توفير الجو المعنوي والروحي، و

أن الاهتمام البالغ حد الإفراط في شراء الهدايا وإتلاف الوقت في الشوارع والطرقات والأسواق آفة كبيرة في هذا السفر الإلهي.

فمن أجل تحقيق هذا الغرض اتخذنا بعض المقررات في ذلك، فأوجدنا معارض للشراء، لكنها فشلت بسبب عدم المنهجية الصحيحة في العمل، ونحن الآن ـ وتحقيقاً لمطالب السيد القائد ـ بصدد البحث عن السبل المناسبة للوصول بالمشاكل المترتبة على الشراء إلى الحد الأدنى.

علماً بأن البعثة ومؤسسة الحج لوحدهما لا يؤثران كثيراً، كما أن استعمال القوة في هذا المجال ليس مدعوماً بالقانون، ولا نرى من المصلحة القيام بذلك، لكننا نعتقد أن للإعلام واستخدام الطرق الثقافية الصحيحة، التأثير المطلوب في ذلك.

□ ميقات الحج: نشكركم على إتاحة الفرصة لمجلة ميقات الحج.

ما الحج، ومن هو الحاج؟

الأسس النفسية والتربوية

الدكتور غلام علي افروز

عندَ الغور في فلسفة وجود القيم الدينية وأسسها النظرية، وكذلك في الواجبات والمحرّمات الشرعية، نتوصلُ إلى الحقيقة التالية، وهي أن خالق عالم الوجود و منظّمه عندما خلق الإنسان الذي هو أشرفُ المخلوقات وخليفة الله على الأرض، سَخَّرَ لَهُ كذلك جميع الإمكانات وهيأ له أساليب تعاليهِ ورشدهِ وفلاحهِ في مُعترك الحياة الدُّنيا، بما يتناسبُ مع الفطرة والطبيعة البشرية.

بعبارة أخرى، في الأيديولوجية الإسلامية والثقافة القرآنية، نرى أن جميع الواجبات والمحرّمات الدينية مبنيّةٌ على أساس الفطرة، والمنطق، والعقل السليم للإنسان، هذا الإنسان الذي يملك مَلكة التعقل وقدرة التمييز والاختيار.

وفي نظرة عامة، نستنتج أن جميع الواجبات والمستحبات الدينية، وكذلك جميع المحرّمات والمكروهات مبنيّةٌ على أساس نظام منطقي وقيمي واضح، بحيث مُنِعَ وحُرِّم كلُ ما هو مُضرٌ لِصحة وسلامة الإنسان وكلُ ما هو مانع لرُشدهِ الفكري والنفسي والاجتماعي، سواءٌ بالفعلِ أو بالقوة، على المدى

القريب أو البعيد، بصورة علانية أو سرّية، فردية أو جماعية... وعلى العكس من ذلك أوجَبَ على كل إنسان بالغ وعاقل كل ما يؤدي إلى تعاليهِ و نموّهِ الجسدي والعقلي والروحي والأخلاقي والاجتماعي، والفرائض الدينية كذلك فُرِضت بطريقة بحيث إن كل انسان يستطيعُ أن ينال ما يطلبهُ من الكمال والفلاح والتوفيق على قدرِ استطاعتِهِ.

مثلاً عند التأمل العميق في الأصول العامة والمعايير الحاكمة على بعض الأمور التي اعتبرت من المحرّمات، مثل تعاطي المشروبات الكحولية ولحم الخنزير والمواد المخدّرة، وكذلك الانحرافات الأخلاقية والسلوكية، مثل الكذب، والغيبة، والتهمة، والسرقة، والتطفيف، والخيانة، والظلم... وأمثالها، نراها هي الأمور بعينها التي تؤثرُ على صحة الإنسان وسلامته، وتُعيقُ تكاملهُ العقلي والروحي[1].

من الناحية الأخرى، نجدُ أن جميع الواجبات والتوصيات الإسلامية أرضية لتكامل الإنسان في حياتهِ الفردية والعائلية والاجتماعية، والعملُ بها يضمنُ للإنسان روحاً سالمة وشخصيةً متكاملة، وكذلك مجتمعاً سالماً ومتطوراً.

ومن جملة هذهِ الواجبات والتوصيات: الصدق، وقول الحق، والعدالة، ومُحاربة الظلم، ونُصرة المظلومين، والعفة والطهارة، والابتعاد عن المضرات، وتآلف القلوب والسعي لإيجاد الصُلح والوئام، وأداء الخُمس والزكاة لغرض

(١) تشيرُ نتائج الدراسات التي أُجريت مؤخراً في جامعة لندن بأن تعاطي الكحول والمخدرات حتى ولو بمقدار ضئيل، علاوةً على آثاره المخرّبة والمدمّرة على الأسرة والمجتمع، يؤدي كذلك إلى انقباض الخلايا الدماغية للإنسان، وكذلك لحم الخنزير فإنه يحوي هورمونات تفضي إلى اختلال الحالات الروحية للأفراد، و تُضاعفُ لديهم حالات التوتر والنزاع والمشاكسة والسلوك اللامتعادل.

تأمين احتياجات المعوزين، والإحساس بالمسؤولية، ومتابعة أمور المحرومين والمستضعفين، واحترام الوالدين وتكريم الأبناء، وطلب العلم ومكافحة الجهل والأمية، والتعاون وإبداء المُساعدة... هذهِ الواجبات يعملُ بها كلُ صاحب دراية وفكر يؤمن بضرورة هذهِ الأُمور لحياتِهِ الفردية والاجتماعية.

عن الرسول الأكرم ‘: «**مَن أصبَحَ ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم**»، وفي حديث آخر: «**الدين هو العقل والعقل هو الدين**».

فالعاقل هو الشخص الذي يبني حياتهِ الفردية و الاجتماعية على أساس المنطق، والحكمة والتطور والتعالي... لربما يكونُ الإنسان صاحب ذكاء مُفرط ولكنّه يتصرفُ في أغلب الأحيان تصرفاً غير منطقي، مثل التدخين لدى المتخصصين في مجال الطب، فهم على الرغم من اطلاعهم على مضاره، لكنهم لا يأبهون بذلك.

إنّ الذكاء وسيلةٌ وأداة، والعقل يحُسّنُ الاستفادةِ من هذا الذكاء، فالإنسان الذي لا يعملُ بما يعتقدهُ ويؤمنُ بهِ لا يُعتبرُ إنساناً عاقلاً.

جاء في كتاب الله الكريم:

{**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون**}[1]. وفي آية اخرى: {**أم تقولون على الله ما لا تعلمون**}[2].

ومن الواضح جداً أن أسمى وأجمل تعبير لهذهِ القيم الإلهية المتعالية يتجسد و يتبلور في سلوك الموحّدين الأحرار الذين هم على اتصال دائم بخالقهم عن طريق إقامة الصلاة، فعن الرسول الأكرم ‘: «**مَن يُريدُ أن يتكلم مع الله فليُصل، و مَن يُريدُ الله أن يتكلمَ معهُ فليتلو القرآن**».

الصلاة هي الجواب الأمثل للتعبير عن الشُكر والتقدير للخالق المنّان لأقصى ما يبغيهِ البشر ويسعى للوصول إليه، ألا وهو الازدهار والوصول إلى درجة الكمال.

الصلاة مصفاة الوجود، وتناغم الخالق والمخلوق، والجواب الدائم على الاحتياجات الإنسان الروحية والفطرية، منهجٌ غير مُقيّد بعاملي التاريخ والجغرافية، وفرصةٌ مُتاحة لأي إنسان حر ومُفكر وشكور لكي يقف عند اللزوم وفي أوقات معلومة على منصة المعراج، ويتغنى بنشيد الحرية، ويبوح بمكنونات قلبهِ عن طريق الشكر للخالق الرحمن الرحيم.

أما الصوم، فهو منهجٌ تربوي آخر، يُهيئُ الأرضية للنمو الحيوي والنفسي والاجتماعي المطلوب، وواجبٌ على كل إنسان صالح وسالم وفي أية نقطة في العالم أن يقف في صفوف المسلمين في شهر رمضان المُبارك ويُشاركهم في أداء هذا المنهج العام الذي هو مُعسكر تهذيب النفس، وتكوين الشخصية، وتحطيم القيود والعادات اليومية والنفسية والاجتماعية، وتقوية الإرادة، والاتكال

---

(١) الصف: ٢ .

(٢) البقرة: ٨٠ .

على الذات، والسعي للوصول إلى قمة الفلاح.

إنّ المعنى الدقيق للتربية يبدأ من تحطيم العادات، وبتعبير آخر، حتى العادات الحسنة ليست بالحسنة، الصلاة أيضاً يجبُ أن لا تؤدى على أساس العادة والتكرار، بل يفترض أن يكون كل عمل وسلوك مقروناً بالوعي والنية والإرادة.

الصوم منهجٌ يهدفُ إلى ازدهار الفرد وتحوّله، وحركة مُستهدفة ومؤثرة في طريق القضاء على الفقر، وتحقيق العدل، وسلامة المجتمع وتعاليهِ.

لا شك أن عملية جمع نفقات الزكاة والفطر وتوزيعها العادل بين المحتاجين في أي مجتمع من المجتمعات الإسلامية، هي خطوة مؤثرة وإيجابية في طريق مكافحة الفقر وضمان حاجات المسلمين الغذائية لفترة زمنية معينة، ومن الناحية الأخرى تبيّنُ التقارير السنوية التي يقدمها مسؤولو القضاء والشرطة بأن مُعدّل الجرائم والمخالفات الأخلاقية تقلّ عادةً في شهر رمضان بشكل جدير بالملاحظة.

وأخيراً، الصوم هذهِ الفريضة التربوية مثلُها مثلُ الطبيعة مُعرّضة بعد عام من ممارستها وتجربتها إلى التغيير والتحول وإعطاء الثمار، بالضبط كمزارع مُثابر، يحرثُ الأرض في كل عام قبل نثر البذور الجديدة كي يتخلص من الأعشاب التالفة والمخرّبة للزروع، وبهذا تستطيع البذور الجديدة أن تنمو في أرض مناسبة، شهر رمضان المبارك كذلك يخلقُ الأرضية المناسبة الخالية من الآفات المحتملة التي تمنعُ النمو والرُشد المطلوب للإنسان.

و من هذا المنظار، الصوم حاجة طبيعية لتطهير الجسد والروح، وعاملٌ مساعدٌ لنمو الإنسان وتعاليهِ.

أما الحج، هذا المنهج التربوي التهذيبي، الذي نجده ـ لدى مقارنتِهِ مع المناهج التربوية الأخرى مثل الصلاة والصوم ـ مُقيّداً عادةً بعاملي الزمان

والمكان، ولهذا فهو مُتفقٌ مع الصوم والصلاة في إنجازه في زمان معين، ولكنه يختلفُ عنهما في أن مناسكهِ لا يمكنُ أداؤها في أي مكان نختارهُ، بل تؤدى دائماً في منطقة خاصة، وفي أرض مقدّسة، وفي موعد واحد، وفي محيط آمن.

الحج تطهير النفوس في بحر الوجود، ومجابهة الشرك، والدعوة للتوحيد، وكذلك تصفية الوجود، وتطهير الجسد والروح بماء الرحمة الإلهية.

الحج هو التخلص من القيود والتعلقات والأنانيّات، وتجربة الحياة في ظل التوحيد.

الحج أمر واجب ـ بالدرجة الأولى ـ على الأشخاص المستطيعين، بينما الصلاة والصوم، أمران واجبان على كل المؤمنين بالله والسالكين طريق الحق.

جاء في الكتاب الكريم: {**لا يكلّف الله نفساً إلا وُسعها**}[1]، فبحسب النظام الإلهي، على كل من باستطاعتهِ حضور مراسم الحج العظيمة وأداء مناسكهِ وتأمين نفقاتهِ، زيارة بيت الله الآمن، والهجرة من النفس الأمّارة والالتحاق بالخالق المنّان.

وفي الواقع، إن الذين يتمتعون بإمكانات مالية واجتماعية أكثر في حياتهم، معرّضون أكثر من غيرهم للانحرافات الاجتماعية والأخلاقية، لهذا إن لم يكن الثراء مقروناً بالتزكية وتهذيب النفس فإنّ بإمكانه أن يكون عاملاً مساعداً على التمرّد والطغيان.

إنّ على الإنسان الثري تكاليف أكثر من غيره، ولا شك أن الشخص الذي يملك نصيباً أوفر من النِعم الإلهية ويتمتع بقدرة بدنية وفكر خلاّق وإمكانات إقتصادية عالية، يجبُ أن يكون لديهِ إحساس بالمسؤولية أكثر من غيره، وأن يسعى دائماً لأداء رسالتهِ الشخصية والاجتماعية عن طريق

(١) البقرة: ٢٨٦ .

تهذيب النفس، وصفاء القلب، واكتساب توفيقات وافرة.

لذا كان الحج واجباً على كل إنسان متمكن، لئلا تكون هذهِ الاستطاعة وهذا التمكن والثراء والمنزلة الاجتماعية سبباً للتباهي والتفاخر والتسلط والتمرّد والطغيان.

الحج منهج شامل للتخلص من جميع الآفات المتعلقة بشخصية الإنسان، وتحصين النفس من وساوس الشيطان، فلو تأملنا في سير مناسك الحج وأعماله وأحكامِه من البداية حتى النهاية، لاستطعنا أن نستنتج بأن الحج هو تصفية النفس من جميع الآفات الروحية والانحرافات الاجتماعية، وهو صياغةٌ للشخصية التي يمكنُ الاعتماد عليها، مصونةً من الفساد، هادئةً ومتواضعة، تتحكمُ بشهواتها النفسانية والمؤثرات المحيطية، متوكلةً على الله، ومُبتعدة عن الطمع والتباهي والتسلّط، وخالصة في عبادتها لله عزّ وجلّ.

كل من يتأمل ويفكر في هذا السفر الإلهي يتولدُ لديه إحساس بأنه يُريدُ أن ينتقل إلى عالم آخر، ولهذا عليهِ التخلّص والتحرّر من القيود الدنيوية، وكذلك من التشويشات والاضطرابات النفسية، من القلق ومن تعلقات الدنيا واضطراباتها، وكذلك الاضطرابات الناجمة عن العلاقات الاجتماعية، والتعامل بين الأفراد، لكي يبلغ أرض التوحيد بقلب آمن ومطمئن، لذا عليهِ أن يطلب إبراء ذمتهِ من أهل بيته وأقاربهِ ومعارفِهِ وجيرانِهِ وزملائِهِ وغيرهم، ويطلبُ المعذرة ممن أساءَ لهم يوماً ما أو اغتابهم، و بهذا يكون قد أزالَ غبار الحقد والضغينة.

علاوةً على هذا، يجبُ على كل شخص عازم على الحج أن يسدّد جميع ديونه الشرعية والقانونية، ويرسم لنفسهِ صورةً واضحةً عن وضعه المالي وتسوية حساباتهِ وتعهداتهِ الأخلاقية والاجتماعية، ويقدمها لعائلته أو لوصيّه، لأن سفر الحج لا يكونُ مقبولاً إذا لم يدرس الحاج الماضي والحاضر،

وإذا كان غافلاً عن الحلال والحرام.

كلمة الحاج ليست صفةً يَتحلى بها بسهولة أي مُسافر لبيت الله، وإنّما تتطلب أن يتحلّى هذا اللقب بجميع الفضائل الأخلاقية والقيم الإنسانية، ويتنزّه عن جميع الرذائل الأخلاقية، ويتحرّر من الأهواء النفسية.

وأنت أيّها الإنسان المسلم إذا أردت أن تنال لقب الحاج، هذا المقام الشامخ، يجبُ أن تتحمّل المشقّات، وأن تخرج من صفة الذات، وتتوحّد وتخلص لله الواحد الأحد، وأن تصفّي قلبك من الشوائب قُربةً إلى الله، وتفرّغه من كل ما هو باطلٌ وتستبدلهُ ببذور حب الله عزّ وجلّ، وتُطهّر جسدك وروحك بماء الرحمة الإلهية، وتبدّل لباسك المميز (الذي يميّزك عن غيرك) بلباس الإحرام الأبيض اللون الذي لا يميّز شخصاً عن آخر.

إن جانباً من الهوية الفردية للإنسان يتعيّن من خلال الملابس، فعندما يلبسُ فريقٌ من الناس اللباس الموحّد مثل مرضى المستشفيات، الجنود، الحجاج المكفنين بلباس الإحرام، عند ذاك تنهدمُ الفوارق وتزولُ، ولهذا السبب نجدُ أن البعض من الأثرياء الراقدين في المستشفيات يفضّلون أن يلبسوا ملابسهم الشخصية في المستشفى حتى يتميزوا عن غيرهم.

يجب أن يكون الحاج مقاوماً للنزعات والميول النفسية، ولديهِ إيمان وعزمٌ وتوكل راسخ، و نيّة خالصة، ودوافع مقدّسة، ولا يغفل لحظةً عن السعي في مجالات الصدق والصفاء والمروءة والإيثار.

جاء في كتاب الله الكريم: {**وأن ليس للإنسان إلى ما سعى**}[1]، ومن آياته أيضاً: {**بَل الإنسان على نفسه بصيرة**}[2].

---

(١) النجم: ٣٩.

(٢) القيامة: ١٤.

وجميع علماء النفس والأطباء النفسانيين يدركون هذهِ الحقيقة، وهي أن أهم الآفات الأخلاقية والانحرافات السلوكية على مدى الأزمنة وفي كل مكان في العالم، سببه العجز عن التغلّب على الأهواء والميول النفسية.

الخالق المنّان الذي خلق الإنسان على شاكلته، عليمٌ بجميع القوانين التي تحكم النفوس والخصوصيات والحاجات الفطرية للإنسان، وهو يريد أن يبتلي الإنسان المتمكّن ويمتحنه.

بصورة عامة، على كل من يُريد أن يصبحَ حاجّاً أن يعمل بالنصائح التالية:

١ ـ تجنّب التكبّر والتبرّج: في حال الإحرام لا يجوز النظر في المرآة أو التعطّر أو لبس الخواتم.

٢ ـ الابتعاد عن الكسل و عدم الاهتمام بالغير: لا يجوز وضع شيء على الرأس، وتغطيتهِ وأنت في حال الإحرام.

٣ ـ اجتناب إيذاء النفس وإيذاء الآخرين: قتل الحشرات، وإراقة أي دم حرام.

٤ ـ التحرّر من الأفكار العدوانية والمخرّبة والمشاكسة: لا تجوز المجادلة، وحمل السلاح بكل أنواعهِ، وكذلك قلع الأشجار، وقتل الحيوانات.

٥ ـ الابتعاد عن أنواع المباشرة والأهواء الجنسية: لا يجوز ممارسة الأعمال الجنسية.

٦ ـ الابتعاد عن التفاخر والمباهاة والتعالي.

٧ ـ الاحتراز عن البذاءات والإهانات والإساءة للآخرين.

لأن بروز هذه الصفات ـ سواء في الحياة الفردية أو الاجتماعية ـ من الآفات الأساسية المعيقة لتطوّر الإنسان والمضرة بشخصيته، والحاج هو من يستطيع أن يجتاز باقتدار تلك العقبات، و يصل إلى أسمى المراحل، ألا وهي

مرحلة التضحية بأعزّ ما لديهِ.

التضحية مرحلةٌ شامخة من مراحل الحج العظيمة، والآن وأنت ترغب في أن تكون حاجّاً وتنال مقام نبي الله إبراهيم عليه السلام، عليك أن تتّحد في صف المنادين الحقيقيين لعبارة: «لا إله إلا الله»، و أن تتفوّه من سويداء قلبك بكلمة: لبيك، يجبُ عليك أن تُضحي بإسماعيلك كما ضحى به إبراهيم عليه السلام، وبهذا تكون قد أفلحتَ في تصفية النفس، والغلبة على الأهواء والانفعالات النفسية، وصولاً إلى صقل الجسد والروح، والخلوص والتوحيد.

أعزّ ما كان يمتلكهُ إبراهيم عليه السلام بعد عُمر من الانتظار وقرن من الشقاء وتحمل الصعاب، هو ولد عزيز، وشاب جميل الطلعةِ والسيرة، وفي لحظة اختبار صعبة اقتضى الأمر أن يجتث صِلاتهِ و جذورهِ بأعزّ ما يملك، حيث أتى النداء يقول: يا إبراهيم لقد انتصرت، فضحِّ بقربان بدلاً عن إسماعيل.

ضع في طَبَق الإخلاص كل ما لديك: رصيدك، أولادك، زوجك، مقامك، ماء وجهك، شُغلك، شُهرتك، أطماعك، جَشعك... والآن وأنت تُريدُ أن تصبح حاجاً وتصل إلى أعزّ منزلة بين المسلمين وتنال العزّة الإسلامية، فكّر بإسماعيل خالصاً ومخلصاً فتأمل.

نعم، ضحِّ بإسماعيلك في مسلخ العشق والتضحية، وعُد إلى بلدك وأهلك منصوراً كالمصطفين من عباد الله، بقلب مطمئن وآمن، والآن قد أصبحت ذا سلوك كأنك وِلدت مرةً أخرى، يخفقُ قلبك من أجل الله فقط لا غير، لا تقول غير الحق، ولا تبحث عن غير الحق، ولا تخطو خطوةً في غير طريق الحق، يرغبُ كل الناس رجالاً ونساءاً، صغاراً وكباراً أن يشاهدوا فيك القيم الإسلامية والقدوة المتعالية للشخصية الإسلامية، في سلوكك الفردي والاجتماعي.

الحاج هو مظهرُ المقاومة أمام طُغيان النفس، وهو تفسيرٌ للصدق

والصواب، و تجسيدٌ للمغفرة والتضحية، وتبلورٌ للمحبة والمنطق، ورمزٌ للصفاء والمروءة، وكما جاء في القرآن الكريم: {**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**}[1].

(١) الفرقان: ٦٣.

خزيمة بن ثابت الأنصاري، ذو الشهادتين

حسن الحاج

قيض الله سبحانه وتعالى نفوساً طيبة من أصحاب رسول الله ‘، ومن رواد مدرسته الربانية المباركة، وقد ملئت قلوبهم إيماناً وصلابة ووعياً وبصيرة ثاقبة، وهيأها لكي تجني ثمار إيمانها الواعي وسعيها الحثيث، وكدحها الدؤوب، وجهادها المتواصل، وتسابقها في الخيرات، و لصدقها وإخلاصها في جميع ذلك، فقد حباها نبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه بدوره أوسمة رفيعة، ومناقب جليلة، وشمائل عالية، وصفات جميلة، صارت من أجلّ الألقاب التي يحبونها، وراحت تتزين بها أكتاف أصحابها بحق، ويتفاخرون بها دون تعال وتكبر، وحفظتها لهم الأجيال والتاريخ ومصادره...، فيما اشرأبّت إليها أعناق آخرين دون جدوى.

فبعضهم حظي بها بعد استشهاده أو وفاته:

فحمزة بن عبد المطلب كان يلقب أسد الله في حياته وسيد الشهداء بعد وفاته.

وجعفر بن أبي طالب وصف بأنه جعفر الطيار ذو الجناحين يطير بهما في

الجنة حيث يشاء.

وحنظلة بن أبي عامر الراهب غسيل الملائكة.

وسعد بن معاذ اهتز لموته عرش الرحمن...

وبعض حظي بها في حياته:

خزيمة بن ثابت هذا الصحابي الكبير الذي نحن بذكره، كان واحداً من القلة الذين منحتهم السماء وساماً رائعاً ألبسه رسول الرحمة له (خزيمة ذو الشهادتين) أي عدت شهادته بشهادة رجلين، لصدقه وعدله ونفاذ بصيرته ووعيه وعمق إيمانه، فظل محتفظاً به حريصاً عليه، لم يفرط فيه طيلة حياته الإيمانية والجهادية، حتى اقترن بوسام آخر أجل منه وأعظم، إنه وسام الشهادة المباركة، ليختم به عمره، ويختصر به الطريق إلى حيث الفردوس الأعلى في جنة عرضها السماوات والأرض {... **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**}[1].

(١) سورة النساء: ٦٩.

وهكذا ظل وما زال هذا الأنصاري الأوسي الخطمي المدني يعرف بذي الشهادتين، وإذا ما ذكر اسمه عقّب بعده مباشرة بهذا الوسام، الذي لم يناقش أو يشكك في نسبته إليه أحد أبداً، بل ولم يذكر اسمه إلا وهو مقترن بهذا اللقب إلا قليلاً.

نسبه:

هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة بن عامر بن غيان ـ ويقال: عنان ـ بن عامر بن خطمة، وقيل: حنظلة، وقد صوّبوا الأول.

واسمه عبد الله بن جشم بن مالك بن أوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر.

هذا نسبه من أبيه.

وأما من أمه، فهي كبشة بنت أوس بن عدي بن أمية بن عامر بن ثعلبة.

وفي نسبه اختلاف، وقيل: حنظلة بدل خطمة، والصواب خطمة بغير شك.. وهو عامر بن خطمة الوارد في نسبه من أبيه، وهو الذي ورد في طبقات ابن سعد[1] في ترجمة كبشة. وربما يكون المقصود بثعلبة هذا هو جده ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وقد اكتفى بذكره اختصاراً.

وختاماً، فخزيمة بن ثابت هذا هو ذو الشهادتين، وهو: أبوعمارة الأنصاري الأوسي الخطمي المدني، من أشراف قبيلة الأوس. أحسن الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأهل بيته الطاهرين سلام الله عليهم. وإن لم يتيسر لي معرفة أول إسلامه، فابن هشام في السيرة النبوية لم يورد اسمه في الذين بايعوا رسول الله ‘ في العقبتين الأولى والثانية ولا حتى الأخيرة، إلا أنه وبعد أن شرح الله سبحانه وتعالى صدره للإيمان

(١) طبقات ابن سعد ٨ : ٣٥٤.

عاش الإيمان بروحه وشعوره ووجدانه، وأحب الله تعالى ورسوله وأهل بيته صلوات الله عليهم بصدق وإخلاص واستقامة، لا يشوبها شك ولا يخالطها تردد، هدفه الأول والأخير رضا الله تعالى وجنة عرضها السماوات والأرض، فكان بحق من مصاديق هذه الآية المباركة: {**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم**}[1].

وقد راح هو وصاحبه عمير بن عدي يكسران أصنام بني خطمة قومهم بلا خوف من عقاب[2].

شهد مشاهد وغزوات رسول الله ‘، ومنها معركتا أحد والخندق، وما بعدهما من المعارك والغزوات.

أما معركة بدر الكبرى فلم يذكره ابن هشام في عداد المشاركين فيها .

ويبدو أن هذا ـ وقد يكون هناك غيره ـ هو السبب الذي أوجد الخلاف بين المؤرّخين في مسألة حضوره بدراً أو عدمه، إلا أنهم اتفقوا على حضوره ما بعدها من المشاهد مع رسول الله ‘.

كان خزيمة من المشاركين في غزوة مؤتة بناحية الكرك بالبلقاء في جمادى الأولى لسنة ثمان من الهجرة، حيث خاض هناك ـ هو ومن معه ـ معركةً لم يخض المسلمون معركةً مثلها، فقد تدرّع المشركون الروم بالعتاد والجند ما يملأ السهل والجبل وما لا طاقة للمسلمين به، كما وصف ذلك عدد من المؤرخين، فاستشهد الكثير ممن كتبت له الشهادة بمن فيهم أمراء جيش المسلمين الثلاثة

(١) التوبة: ١٠٠.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٨: ٤٥ وغيره.

الذين استعملهم رسول الله ‘، وهم: زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب، فعبد الله بن رواحة رضوان الله عليهم جميعاً[1]. فيما عاد المقاتلون الذين كتبت لهم السلامة إلى المدينة والألم يعتصر قلوبهم مما جرى...

ومن الطبيعي أن تبقى أشياء كثيرة من ذكريات تلك المعركة الشرسة عالقةً في أذهان المشاركين بها، فراح العديد من المقاتلين يتحدثون بها بين الفترة والأخرى.

فهذا عمارة بن خزيمة يحدث عن أبيه أنه قال:

حضرت مؤتة، فبارزت رجلاً يومئذ فأصبته وعليه بيضة له، فيها ياقوتة، فلم يكن همّي إلا الياقوتة فأخذتها، فلما انكشفنا وانهزمنا رجعت بها إلى المدينة فأتيت بها رسول الله ‘، فنفلنيها، فبعتها زمن عمر بن الخطاب بمائة دينار، فاشتريت حديقة نخل بني خطمة[2].

ويوم فتح مكة في شهر رمضان عام ٨ هجرية كانت كل قبيلة من قبائل المسلمين تحمل رايتها، فيما كانت مع خزيمة بن ثابت راية قومه بني خطمة[3].

ذو الشهادتين !

تواترت في قصة هذا الوسام الرائع والصفة الحميدة عدة روايات من أن رسول الله ‘ اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربي فجحد، فشهد له خزيمة بن ثابت.

---

(١) أُنظر مقاتل الطالبيين: ٣٠، والمصادر التاريخية الأخرى.

(٢) أُنظر كتاب المغازي للواقدي ٢: ٧٦٩، ومختصر تاريخ دمشق ٨: ٤٥.

(٣) أُنظر مختصر تاريخ دمشق ٨: ٤٥.

فقال رسول الله: ما حملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضراً؟!

قال: صدقتك بما جئت به، وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً.

وفي خبر آخر: صدقناك بخبر السماء ولا نصدقك بخبر اشتراء ناقة.

فقال رسول الله ‘:

«من شهد له خزيمة أو شهد عليه فحسبه».

وفي رواية أخرى: أن النبي ‘ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ‘ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، لا يشعرون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبي ‘، فنادى الأعرابي النبي ‘ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعته.

فقال النبي ‘ حين سمع نداء الأعرابي: أوليس قد ابتعته منك ؟

قال الأعرابي: لا والله ما بعتك، فقال النبي ‘: بلى، قد ابتعته منك.

فطفق الناس يلوذون بالنبي ‘ والأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك! إن النبي ‘ لم يكن ليقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ‘ ومراجعة الأعرابي، وطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك.

فقال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته.

فأقبل النبي ‘ على خزيمة فقال: بم تشهد؟

أو ـ كما في رواية ثانية ـ كيف تشهد ولم تحضره ولم تعلمه ؟

فقال: بتصديقك يا رسول الله !

أو أنه قال ـ حسب رواية أخرى ـ : يا رسول الله نحن نصدقك على وحي من السماء، فكيف لا نصدقك على أنك قضيته؟!

فأنفذ × شهادته وسمّاه «ذا الشهادتين»، لأنه صيّر شهادته شهادة رجلين، وصارت شهادته ـ بهذا الوصف له من قبل رسول الله ‘ ـ في أي قضية يدعى لها تغني عن طلب شاهد آخر.

أو لأن خزيمة ـ كما في خبر آخر ـ شهد للنبي ‘ على يهودي في دين قضاه عليه السلام.

أنه الأيمان الوثيق واليقين العميق والبصيرة الواعية ! فهيأه كل هذا لاستحقاق ذلك اللقب العظيم والوصف الجليل.

وقد احتلت هذه الرواية مكاناً لها في المناقشات الفقهية عند الفريقين في باب حجية علم القاضي وفي باب الشهادات[1]....

وافتخر الأنصار!

يعد هذا الشعار كرامةً أخرى تضاف إلى سجلّ الأنصار، الذين نالوا حظاً وافراً في آيات قرآنية مباركة وأحاديث وأقوال نبوية شريفة، راحت تضفي عليهم صفات عالية، وتذكر لهم مواقف شامخة، حتى غدوا أهلاً لثناء السماء ومدحها.

فقد وصفهم الله تعالى بأنهم مؤمنون، وبأن المغفرة والرزق الكريم نصيبهم، بسبب ما قدموه لرسول الله وللمؤمنين المهاجرين من إيواء ونصرة، فقال في

(١) انظر في هذا كله وسائل الشيعة ١٨، ب ١٨ من أبواب كيفية الحكم، ح٣، ومختصر تاريخ دمشق ٨ : ٤٦ –٤٧، وأحكام القرطبي ٣: ٤٠٥، والإصابة في معرفة الصحابة: ٢٣٤٧، وغيرها من المصادر التاريخية والروائية والفقهية.

كتابه العزيز: {**والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم**}[1] وانظر الآية ٧٢ من سورة الأنفال، حيث فيها تكريم لهم لإيوائهم المهاجرين وعلى رأسهم نبي الرحمة، ونصرتهم لهم أيضاً.

وهم الذين قال فيهم رسول الله ‘: «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار».

إلى غير هذا من الإطراء عليهم وعلى ما قدّموه من أعمال حميدة وخدمات جليلة وفقهم الله تعالى لها، فاستحقوا عليها كل ذلك الثناء والذكر الطيب.

* فقد افتخر الأوس ـ وكان حقاً لهم أن يفتخروا ـ بثلّة مؤمنة منهم، تتضمن أربعةً من أصحاب رسول الله ‘، تشرفوا بالصحبة النبوية المباركة، وحظوا بمناقب عالية وأوسمة رفيعة.

فقالوا:

منا غسيل الملائكة: حنظلة بن راهب.

ومنا من اهتز له عرش الرحمن: سعد بن عبادة.

ومنا من حمته الدبر أي النحل والزنابير: عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، فقد أصيب يوم أحد، فمنعت النحل الكفار منه، وذلك أن المشركين لما قتلوه أرادوا أن يمثلوا به، فسلط الله عز وجل عليهم الزنابير الكبار تأبر الدارع، فارتدعوا عنه حتى أخذه المسلمون فدفنوه[2].

---

(١) الأنفال: ٧٤.

(٢) راجع لسان العرب، مادة «دبر».

ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين: خزيمة بن ثابت.

* فيما راحت الخزرج هي الأخرى تعدد مناقب أربعة من أبنائها، وكأنه جاء رداً على ما تفاخرت به الأوس.

فقال الخزرجيون:

منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ‘، إذ لم يجمعه غيرهم، وهم: زيد بن ثابت، وأبو زيد، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل[1].

إلا أن افتخارهم بهذه المناقب وبتلك الأوسمة ـ وهي ألقاب كانوا يحبونها بصدق ـ كاد أن يكون سبباً لإثارة ما دفن من أحقاد وضغائن ونزاعات قديمة بينهم دامت قرابة مائة عام، وذلك قبل أن يوحّدهم الإسلام ونبي الرحمة محمد ‘، ولولا تدخّل السماء وحكمة رسول الله ‘ لهمّوا أن يقتتلوا.

فقد ذكر جمع من المفسرين أن سبب نزول آيتي: {**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون**}[2]، هو ما وقع من افتخار بين أوسيّ وخزرجي حول ما يتمتع به بعضهم من مناقب وفضائل.

فقد قال مقاتل: افتخر رجلان من الأوس والخزرج: ثعلبة بن غنم من الأوس، وأسعد بن زرارة من الخزرج.

فقال الأوسي: منّا ابن ثابت ذو الشهادتين، ومنا حنظلة غسيل الملائكة، ومنا عاصم بن ثابت حمي الدين، ومنا سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن

---

(١) أُنظر أحكام القرآن للقرطبي ١: ٥٦ ، ومختصر تاريخ دمشق ٨ : ٤٧.

(٢) آل عمران ١٠٢ ـ ١٠٣.

له ورضي بحكمه في بني قريظة.

وقال الخزرجي: منا أربعة أحكموا القرآن: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومنا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم.

فجرى الحديث بينهما، فغضبا وتفاخرا وناديا، فجاء الأوس إلى الأوسي والخزرج إلى الخزرجي، ومعهم السلاح.

فبلغ ذلك النبي ‘، فركب حماراً وأتاهم، فأنزل الله هذه الآيات، فقرأها عليهم فاصطلحوا[1].

وهذه ليست الوحيدة والأخيرة بينهم، فانظر أسباب النزول للواحدي في خصوص الآية {**إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم...** }[2]. تجد ما دار بين سعد بن معاذ زعيم الأوس[3]، وسعد بن عبادة زعيم الخزرج، فثار الحيّان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ‘ قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

هذا إضافة إلى ما كان يذكيه يهود المدينة ويغذونه من نعرات قديمة بين الحيّين الأوس والخزرج.

رؤيا خزيمة!

(١) أُنظر مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ الطبرسي ٢: ٨٠٤، في تفسير الآيتين المذكورتين، وراجع غيره من التفاسير.

(٢) النور: ١١.

(٣) وفي هذا كلام، لأن سعد بن معاذ توفي بعد حكمه المشهور في بني قريظة، وهو أمر وقع قبل حادثة الإفك بفترة تجاوزت أشهراً عديدة. اللهم إلا إذا أخذنا بما ذكره الواقدي من أن غزوة بني المصطلق التي وقعت فيها حادثة الإفك كانت قبل غزوة بني قريظة، بل وقبل غزوة الخندق، فكانتا بعد المريسيع لحرب بني المصطلق من خزاعة فوقعت في شعبان سنة خمس من الهجرة، وهو كما يبدو خلاف مشهور المؤرخين الذي يذهب إلى أن رسول الله ﷺ غزا بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ست من الهجرة . أُنظر: تاريخ الطبري ٢: ١٠٤.

عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن أبيه: أنه رأى في المنام كأنه سجد على جبين رسول الله ‘، فذكر ذلك لرسول الله ‘.

فقال رسول الله ‘: إن الروح لا تلقى الروح. فأقنع رسول الله ‘ رأسه، ثم أمره فسجد من خلفه على جبينه، جبين رسول الله ‘[1].

جمع القران:

أكدت كثير من المصادر التاريخية والروائية أنه كان لخزيمة بن ثابت «ذو الشهادتين» دور واضح في مهمة جمع آيات كتاب الله تعالى، فقد راح العديد من الصحابة يستعينون به في هذا المشروع، خاصة حين فقدانهم لبعض الآيات القرآنية المباركة:

فعن زيد بن ثابت أنه قال:

لما كتبنا المصاحف فقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ‘ {**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً**}[2]. فوجدتها عند خزيمة بن ثابت، وكان يدعى ذا الشهادتين، فألحقتها في سورتها.

وفي رواية أخرى: أن عمر بن الخطاب أراد أن يجمع القرآن، فقام في الناس فقال: من كان تلقى من رسول الله ‘ شيئاً من القرآن فليأتنا به.

وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب ـ جمع عسيب، وهو

(١) أُنظر في ذلك ما رواه أحمد بن حنبل، مسند الأنصار، وغيره.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

جريدة النخل مما لا ينبت عليه الخوص كما في لسان العرب ـ وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان ، فقتل وهو يجمع ذلك.

فقام عثمان بن عفان فقال:

من كان عنده من كتاب الله عز وجل شيء فليأتنا به، وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يشهد عليه شهيدان.

فجاء خزيمة بن ثابت فقال: إني قد رأيتكم قد تركتم آيتين لم تكتبوهما.

قال: وما هما؟

قال: تلقيت من رسول الله صلى الله عليه وآله {**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**}[1].

قال عثمان: وأنا أشهد أنهما من عند الله، فأين تريد أن تجعلهما ؟

قال: اختم بهما آخر ما نزل من القرآن. فختمت بهما براءة[2].

ووجدوا عند خزيمة بن ثابت ـ وفي رواية عند أبي خزيمة ـ آية {**فإن تولوا فقل حسبي الله لا اله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**}[3].

مما رواه:

كان خزيمة رضوان الله عليه ملازماً لمدرسة القرآن والنبوة لآياتها ومواقفها وآثارها وثمارها، حريصاً عليها، حافظاً لها، مستفيداً منها، أميناً في نقل ما تيسر له مما توفر عليه من علم، ومعرفة، وآيات قرآنية مباركة، وأحاديث نبوية شريفة، وكان منها:

---

(١) التوبة: ١٢٨ و١٢٩.

(٢) أُنظر مختصر تاريخ دمشق ٨ : ٤٦، البيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي: ٢٤٢ ـ ٢٤٣، أحكام القرآن للقرطبي ١: ٥٠.

(٣) التوبة : ١٢٩.

ـ عنه عن رسول الله ‘ أنه قال: «عمار تقتله الفئة الباغية».

ـ وروي عنه ـ وعن جمع آخر ـ أن رسول الله ‘ جمع بين المغرب والعشاء بجُمع، صلى المغرب ثلاثاً والعشاء ركعتين بإقامة واحدة[1]...

ـ وعنه: نهانا رسول الله ‘ أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، وأن نستنجي برجيع أو عظم.

ـ وعنه عن رسول الله ‘ أنه قال: من استطاب بثلاثة أحجار ليس فيهن رجيع كان له طهوراً.

ـ وعنه: كان ‘ إذا فرغ من تلبيته سأل الله رضوانه ومغفرته، واستعاذ برحمته من النار.

ـ وعنه أن النبي ‘ قال: من أصاب ذنباً فأقيم عليه حد ذلك الذنب فهو كفارته.

(١) انظر أحكام القرطبي ٢: ٤٢٤.

ـ وعنه عن النبي ‘ أنه قال:

إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة[1].

ـ ومن غرائب حديثه ـ كما ورد في مختصر تاريخ دمشق ـ ما حدث أنهم كانوا عند رسول الله ‘ في المسجد، وهو مسند ظهرَه إلى بعض حجرات نسائه ، فدخل رجل من أهل العالية فجلس يسأل رسول الله‘، فشم منه رسول الله ‘ ريحاً تأذى هو وأصحابه.

ـ فقال: من أكل من هذه الشجرة فلا يؤذينا بها.

وهناك أحاديث أخرى إضافة إلى ما توفرت عليه هذه المقالة من رواياته رضوان الله تعالى عليه.

ولاؤه للإمام علي ولاهل البيت عليهم السلام:

كان خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين من أتباع مدرسة أهل بيت النبوة والعصمة والطهارة سلام الله عليهم، وهو ما عرف به وعرفت به مواقفه، دفاعاً عن حقانية العترة الطاهرة المتمثلة في زمنه بالإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه، وظل هذا الرجل على استقامته هذه لم يغيّر ولم يبدل حتى فاضت روحه شهيداً بين يدي أمير المؤمنين علي سلام الله عليه في يوم صفين.

(١) استشهد بأحد جنباً، فلذلك رأى النبي عليه السلام الملائكة تغسله.

روايته لحديث الثقلين:

وقد تشرف بأن يكون واحداً من رواة حديث الثقلين المعروف، وهو الحديث الذي يبين منزلة أهل البيت سلام الله تعالى عليهم، وأنهم الثقل الثاني بعد القرآن، وأن التمسك بهما معاً هو الذي ينجي من الضلالة والتيه والانحراف.

فعن أبي الطفيل: أن علياً عليه السلام قام فحمد الله و أثنى عليه، ثم قال: أنشد الله من شهد يوم غدير خم إلا قام، ولا يقوم رجل يقول: ثبت أو بلغني إلا رجل سمعت أذناه ووعاه قلبه، فقام سبعة عشر رجلاً، منهم خزيمة بن ثابت و...

فقال علي عليه السلام: هاتوا ما سمعتم.

فقالوا: نشهد أنا أقبلنا مع رسول الله ‘ من حجة الوداع ونزلنا بغدير خم، ثم نادى بالصلاة جامعة، فصلينا معه، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس ما أنتم قائلون؟

قالوا: قد بلغت.

قال: اللهم اشهد ثلاث مرات ثم قال: إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، ثم قال: أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إذا تمسكتم بهما لن تضلوا، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، بذلك نبأني اللطيف الخبير، ثم قال:

إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، ألستم تعلمون أني أولى بكم من أنفسكم؟

قالوا: بلى.

قال ذلك ثلاثاً. ثم أخذ بيدك يا أمير المؤمنين فرفعها وقال:

من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.
فقال علي: صدقتكم وأنا على ذلك من الشاهدين[1].

هم الأئمة

وكان رضوان الله عليه من كبار أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام ومن قادة جنده المعروفين بالصلابة والفداء ، ومن جلسائه المقرّبين إليه، ومن أوائل الذين دافعوا عن منزلة أهل البيت، وأنهم أئمة الحق الذين يقتدى بهم، كما جاء في رواية الاحتجاج للطبرسي بسنده عن ابن تغلب عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

ووقع هذا يوم أنكر جمع من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص وكان من بني أمية، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري و...

ومن الأنصار: أبو الهيثم بن التيهان، وسهل وعثمان ابنا حنيف، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين و... واحدقوا بالمنبر بمحضر من الخليفة الأول وجمع كبير من المسلمين... ثم راح كل واحد منهم يدلي بحجته حتى وصل الأمر إلى خزيمة بن ثابت فقال:

أيها الناس، ألستم تعلمون أن رسول الله ‘ قبل شهادتي وحدي ولم يرد معي غيري؟

قالوا: بلى.

قال: فأشهد أني سمعت رسول الله ‘ يقول:

«أهل بيتي يفرقون بين الحق والباطل، وهم الأئمة الذين يقتدى بهم».

وقد قلت ما علمت وما على الرسول إلا البلاغ المبين[2].

(١) اُنظر: حديث الثقلين لنجم الدين العسكري: ٨٤

(٢) راجع الاحتجاج للطبرسي.

اذكر علياً وآله:

في الأيام الأولى لخلافة أبي بكر اعتزل جمع من الأنصار عنه ، فغضبت قريش من موقف الأنصار هذا ... فقالت لعمرو بن العاص: قم، فتكلم بكلام تنال فيه من الأنصار، ففعل ذلك.

فقام الفضل بن العباس فرد عليهم، ثم صار إلى علي فأخبره، وأنشده شعراً قاله.

فخرج علي مغضباً حتى دخل المسجد، فذكر الأنصار بخير، ورد على عمرو بن العاص قوله.

فلما علمت الأنصار ذلك سرها وقالت: «ما نبالي بقول من قال مع حسن قول علي».

واجتمعت إلى حسان بن ثابت فقالوا: أجب الفضل .

فقال: إن عارضته بغير قوافيه فضحني .

فقالوا: فاذكر علياً فقط.

أما خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين فقال: «اذكر علياً وآله يكفيك عن كل شيء».

فأنشد حسان أبياتاً تسعاً كان منها:

جزى الله خيراً والجزاء بكفه ... أبا حسن عنا ومن كأبي حسن؟!

غضبت لنا إذ قال عمرو بخصلة ... أمات بها التقوى وأحيا بها الإحن

ألست أخاه في الهدى ووصيه ... وأعلم فهر بالكتاب وبالسنن؟[1]

(١) تجد بقية الأبيات والقصة كاملة مع مصادرها في كتاب الغدير للشيخ الأميني ٢: ٤٢ ـ ٤٣ .

من أوائل المبايعين:

وكان أيضاً من أوائل الذين بايعوا الإمام علياً سلام الله عليه بالخلافة من الأنصار الذين ذكرهم الشيخ المفيد رحمه الله تعالى، وعدد منهم تسعة وعشرين احتل ذو الشهادتين الرتبة الثانية بينهم، ثم عقب الشيخ في نهاية هذه السلسلة مشيداً بالأنصار قائلاً:

في أمثالهم من الأنصار الذين بايعوا البيعتين، وصلوا القبلتين، واختصوا من مدائح القرآن والثناء عليهم من نبي الهدى عليه وآله السلام بما لم يختلف فيه من أهل العلم اثنان، وممن لو أثبتنا أسماءهم لطال بها الكتاب، ولم يحتمل استيفاء العدد الذي حددناه[1].

وقد ذكر السيد محسن الأمين في كتابه «في رحاب أئمة أهل البيت» أن الحاكم روى في المستدرك بسنده أنه لما بويع علي بن أبي طالب على منبر رسول الله ‘، قال خزيمة بن ثابت، وهو واقف بين يدي المنبر:

إذا نحن بايعنا علياً فحسبنا ... أبو حسن مما نخاف من الفتن

رجوناه أولى الناس بالناس إنه ... أطبّ قريش بالكتاب وبالسنن

وإن قريشاً ما تشق غباره ... إذا ما جرى يوماً على الضمر البدن

وفيه الذي فيهم من الخير كله ... وما فيهمكل الذي فيه من حسن[2]

هذا، وقد انضم ذو الشهادتين إلى الإمام عليه السلام، و شارك معه في المعارك التي خاضها أثناء خلافته، كمعركة الجمل ضد الناكثين، ومعركة صفين ضد القاسطين معاوية وجنده،.وأبلى فيهما بلاءً حسناً.

---

(١) المفيد، الجمل: ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢) محسن الأمين، في رحاب أئمة أهل البيت ٢ : ٣.

في معركة الجمل:

في منتصف جمادى الآخرة وقعت حرب الجمل بين جيش الزبير وطلحة ومعهم أم المؤمنين عائشة من جهة، وجيش الإمام علي عليه السلام من جهة أخرى .

ذو الشهادتين وابن الحنفية:

كانت راية الإمام علي عليه السلام مع ابنه محمد بن الحنفية فنخس قفاه، وقال له: احمل فتقدم، حتى لم يجد متقدماً إلا على سنان رمح. فقال: تقدم لا أمّ لك، فتلكأ، فتناول الراية من يده وقال: يابني بين يدي.

وفي رواية ابن أبي الحديد: أنه دفع إليه الراية يوم الجمل وقد استوت الصفوف.

وقال له: احمل فتوقف قليلاً.

فقال له: احمل. فقال يا أمير المؤمنين، أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر، فدفع في صدره وقال: أدركك عِرْق من أمك. ثم أخذ الراية فهزها ثم قال:

اطعن فها طعن أبيك تحمد لا خير في الحرب إذا لم توقد
بالمشرقي والقنا المسدد

ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصرة.

قيل لمحمد: لم يغرر بك أبوك في الحرب ولا يغرّر بالحسن والحسين؟

فقال: إنهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه.

ثم دفع الراية إلى محمد وقال: امح الأولى بالأخرى وهذه الأنصار معك، وضم إليه خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين في جمع من الأنصار كثير من أهل بدر، وحمل حملات كثيرة أزال بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاءً حسناً.

فقال خزيمة بن ثابت لعلي عليه السلام: أما أنه لو كان غير محمد اليوم لافتضح،

ولئن كنت خفت عليه الجبن وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خفناه عليه. وإن كنت أردت أن تعلمه الطعان فطالما علمته الرجال .

وقالت الأنصار: يا أمير المؤمنين لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين ما قدمنا على محمد أحداً من العرب.

فقال علي عليه السلام: أين النجم من الشمس والقمر؟! أما أنه قد أغنى وأبلى وله الفضل.

فقال خزيمة بن ثابت فيه:

محمد ما في عودك اليوم وصمة ... ولا كنت في الحرب الضروس معوداً
أبوك الذي لم يركب الخيل مثله ... على وسماك النبي محمداً
فلو كان حقاً من أبيك خليفة ... لكنت ولكن ذاك ما لا يرى أبدا
وأنت بحمد الله أطول غالب ... لساناً وأنداها بما ملكت يداً
وأطعنهم صدر الكمى برمحه ... وأكساهم للهام عضباً مهنداً
سوى أخويك السيدين كلاهما ... إمام الورى والداعيان إلى الهدى
أبى الله أن يعطى عدوك مقعداً ... من الأرض أو في اللوح مرقى ومصعداً[1]

شعره يوم الجمل:

ذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: قال خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ـ وكان بدرياً ـ في يوم الجمل:

ليس بين الأنصار في جحمة الحر ... ب وبين العداة إلا الطعان
وقراع الكماة بالقضب ... البيض فإذا ما تحطم المران
فادعها تستجب فليس من الخز ... رج والأوس يا علي جبان

(١) محسن الأمين، في رحاب أئمة أهل البيت ٢ : ٤٢ ـ ٤٣ .

يا وصى النبي قد أجلت الحر ب الأعادي وسارت الأظعان
واستقامت لك الأمور سوى الشام وفي الشام يظهر الأذعان
حسبهم ما رأوا وحسبك منا هكذا نحن حيث كنا وكانوا

ذو الشهادتين وأم المؤمنين:

ولم يكتف ذو الشهادتين بذلك، بل راح يخاطب أم المؤمنين عائشة طالباً منها التخلّي عن موقفها التحريضي و المناوئ لعلي عليه السلام، فذكرها بأنه وصي رسول الله ‘، كما يذكر ابن ابي الحديد ذلك حيث يقول:

وقال خزيمة أيضاً يوم الجمل:

أعائش خلّى عن على وعيبه بما ليس فيه إنما أنت والدة
وصى رسول الله من دون أهله وأنت على ما كان من ذاك شاهدة
وحسبك منه بعض ما تعلمينه ويكفيك لو لم تعلمى غير واحدة
إذا قيل ماذا عبت منه رميته بخذل ابن عفان وما تلك آبدة
وليس سماء الله قاطرة دماً لذاكوما الأرض الفضـاء بمائدة[1]

في معركة صفين:

وكان خزيمة رضوان الله تعالى عليه ممن شهد معركة الجمل كما ذكرنا، وفي سنة ٣٧ هجرية شهد معركة صفين بجانب جيش الإمام علي عليه السلام، و كان فيها من المقاتلين الأشداء المعروفين ببسالتهم.

فقد كان واحداً من أشياخ الأنصار الذين توجه إليهم الإمام طالباً منهم المشورة.

(١) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ١ : ١٤٥ ـ ١٤٦.

فقد ورد في الخبر: أن الإمام علياً عليه السلام لما أراد المسير إلى أهل الشام دعا إليه من كان معه من المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«أما بعد، فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق، مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم، فأشيروا علينا برأيكم».

فكان خزيمة واحداً من أولئك الذين استحقوا المنزلة التي اختارها أمير المؤمنين لهم، وقد حظي هو ومن معه بهذه الصفات العظيمة التي لم تصدر من الإمام عليه السلام إذا لم يكونوا أهلاً لها أبداً. وقد سبقهم قيس بن سعد بن عبادة بالكلام، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أمير المؤمنين، انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرد[1]، فوالله لجهادهم أحب إليّ من جهاد الترك والروم، لادهانهم في

(١) الانكماش: الإسراع والجد، والتعريد: الفرار والإحجام والانهزام.

دين الله واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد ‘ من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيروه. وفيئنا لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قطين[1].

وما إن انتهى من كلامه حتى بادر أشياخ الأنصار ـ وذكر منهم خزيمة بن ثابت وأبو أيوب الأنصاري وغيرهما ـ فقالوا لقيس:

لم تقدمت أشياخ قومك وبدأتهم يا قيس بالكلام ؟

فقال: أما أني عارف بفضلكم، معظم لشأنكم، ولكني وجدت في نفسي الضغن الذي جاش في صدوركم حين ذكرت الأحزاب.

فقال بعضهم لبعض: ليقم رجل منكم فليجب أمير المؤمنين عن جماعتكم.

وهنا وقع اختيارهم على سهل بن حنيف.

فقالوا: قم يا سهل بن حنيف.

فقام سهل، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت، ورأينا رأيك ونحن كف يمينك، وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة، فتأمرهم بالشخوص، وتخبرهم بما صنع الله لهم في ذلك من الفضل، فإنهم هم أهل البلد وهم الناس، فان استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب..

وأما نحن فليس عليك منا خلاف، متى دعوتنا أجبناك، ومتى أمرتنا أطعناك[2].

إذن فهم ـ وكما في الخبر ـ كانوا راغبين في الموافقة وتلبية طلب أميرالمؤمنين علي عليه السلام دون تردد من أحد بمن في ذلك الصحابي الجليل

---

(١) القطين: الرقيق أو الخدم والأتباع والمماليك.

(٢) أُنظر في هذا وقعة صفين لنصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢، بتحقيق عبد السلام محمد هارون: ٩٣ـ٩٤، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي قدس سره الشريف.

موضوع مقالتنا. وإن وردت رواية عن عمارة بن خزيمة أن خزيمة شهد الجمل وهو لا يسلّ سيفاً، وشهد صفين وقال: أنا لا أقتل أحداً حتى يقتل عمار، فأنظر من يقتله، فإني سمعت رسول الله ’ يقول: «تقتله الفئة الباغية».

قال: فلما قتل عمار بن ياسر قال خزيمة: قد بانت لي الضلالة، ثم اقترب، فقاتل حتى قتل.

وكان الذي قتل عمار بن ياسر أبو الغادية المزني، طعنه برمح فسقط، وكان يومئذ يقاتل في محفة[1]، فقتل يومئذ وهو ابن أربع وتسعين سنة، فلما وقع أكب عليه رجل آخر فاحتز رأسه ، فأقبلا يختصمان فيه، وكلاهما يقول: أنا قتلته.

فقال عمرو بن العاص: والله، إن تختصمان إلا في النار. فسمعها معاوية، فلما انصرف الرجلان قال معاوية لعمرو بن العاص: ما رأيت مثلما صنعت! قوم بذلوا أنفسهم دوننا تقول لهما: إنكما تختصمان في النار ؟!

فقال عمرو: وهو والله ذلك، والله إنك لتعلمه، ولوددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة[2]!

فعلى فرض صحّة هذه الرواية وسلامتها، مع أنها مخالفة لتفاصيل مواقفه المذكورة أعلاه في معركتي الجمل وصفين، والتي تدل بشكل واضح على يقينه وسلامة اختياره، لا ضير فيها على خزيمة ، وهو المعروف بنفاذ بصيرته وسلامتها، وعمق ولائه لأمير المؤمنين علي ‘، وقد خرج إلى معركة صفين ومن قبلها معركة الجمل بكامل وعيه للحق الذي لا يفارق علياً عليه السلام

(١) المحفة: المركب كالهودج، إلا أنّ الهودج يقبّب، والمحفة لا تقبّب، راجع لسان العرب.

(٢) أُنظر مختصر تاريخ دمشق ٨ : ٤٨.

وللباطل الذي لاذ به خصوم علي عليه السلام.

ولكن مع كل هذا، فقد يحدث للإنسان في لحظة ما تردد أو توقف وهو في أمر خطير جداً يحدد مصيره، أو وهو يخطرعلى باله قول رسول الله ‘ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى بحقّ عمار بن ياسر:

«أن أبشر عمار! تقتلك الفئة الباغية، آخر زادك من الدنيا ضياح لبن».

فيجعله الرمز ورايته راية الحق، يستعين بها من تصيبه غفلة أو ضلالة أو حيرة، إما إلى الجنة وإما الى النار، فينتظر برهة ثم يحسم أمره ليكون على بصيرة من أمره لا يشوبها ريب أو نقصان أبداً، أو أنه من باب ليطمئن قلبي لا غير...

فإن دلّت هذه العلامة المنحصرة بعمار رضوان الله تعالى عليه «تقتلك الفئة الباغية...» على شيء عظيم، فإنما تدل على رحمة الله تعالى بعباده، وحرص النبي‘ على محبيه وأتباعه في أن لا تستبدّ بهم الضلالة والحيرة، وأن لا تبقى الغشاوة على أعينهم طويلاً، و أن لا ينزغ الشيطان بينهم وبين الحق الذي يريدون، فيصوّر الحق ضلالةً والضلالة حقاً، فتختلط عليهم الأوراق، وقد يقع المحذور وسوء الاختيار، مع ضيق الوقت وخطورة الموقف وحراجته، مما لا يدع مجالاً لإعادة النظر واختيار الأصح والأصوب، فكان عمار ورايته الدليل الناصع على حقانية الطائفة التي يقاتل عمار دفاعاً عنها، وضلالة الطائفة التي يقاتلها، وهذا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فمن لم تذكره هذه الراية التي قدرت السماء أن يحملها عمار، والتي زينها رسول الله ‘ بقول آخر لعلي عليه السلام عندما ذكر عماراً:

«أما إنه سيشهد معك مشاهد أجرها عظيم، وذكرها كثير، وثناؤها

حسن»[1].

فمن لم يذكره كل هذا بمكان الحق والهدى، فهو الذي مات قلبه، أو لم يكن عنده قلب على الإطلاق، ولم يكن قد هيأ سمعه وأنصت بوعي لنداء الهدى، فاستبد به العناد، فكانت عاقبته الخزي في الدنيا والعذاب في الأخرى، وذلك هو الخسران المبين.

وخزيمة وغيره من الأصحاب الذين نوّر الله تعالى قلوبهم بنور الحق، يعرفون جميع هذا وغيره بحكم ملازمتهم لرسول الله ووعيهم لأقواله وبحكم بصيرتهم النافذة في معرفة منزلة علي من رسول الله ‘، لهذا نراهم قد استبسلوا في الدفاع عن علي ومواقفه طيلة حياتهم.

وخزيمة هو الذي دعا أن يغتسل غسل الشهادة حينما آوى إلى فسطاطه.

تقول الرواية:

عن الفضيل بن دكين قال: حدثنا عبد الجبار بن العباس الشامي عن أبي إسحاق قال: لما قتل عمار، دخل خزيمة بن ثابت فسطاطه وطرح عنه سلاحه، ثم شن عليه الماء فاغتسل، ثم قاتل حتى قتل[2].

ليرد معركة الشهادة التي تيقنها كأنه يراها أمام عينيه وهو يرى عماراً على ترابها صريعاً شهيداً، وخزيمة يردد: لقد سمعتها من رسول الله ‘: «عمار تقتله الفئة الباغية...».

وفي رواية: أن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كنت بصفين فرأيت رجلاً ملثماً يقاتل الناس قتالاً شديداً يميناً وشمالاً، فقلت: يا شيخ، أتقاتل الناس يميناً وشمالاً؟!

(١) أُنظر: كنز العمال ١١ : ٧٢٣، حلية الأولياء ١: ١٤٢.

(٢) أُنظر: رجال الكشي: ٥٢ ـ ٥٣.

فحسر رضوان الله عليه عن عمامته ثم قال:

سمعت رسول الله ‘ يقول:

«قاتل مع علي جميع من يقاتله».

وأنا خزيمة بن ثابت الأنصاري.

ثم راح يواجه الموت بقلب متلهّف للشهادة، متيقن لأجرها وثوابها، وهو يرتجز قائلاً:

قد مرّ يومان وهذا الثالث هذا الذي يلهث فيه اللاهث
هذا الذي يبحث فيه الباحث كم ذا يرجى أن يعيش الماكث
الناس موروث ومنهم وارث هذا على من عصاه ناكث

وظل خزيمة يقاتل حتى استشهد بجوار الصحابي الجليل عمار بن ياسر رضوان الله تعالى عليهما. ووقع هذا سنة سبع وثلاثين هجرية.

ثم راحت ضبيعة بنت خزيمة بن ثابت التي عرفت بإيمانها وولائها للإمام علي سلام الله عليه ترثي أباها صاحب الشهادتين:

عين جودي على خزيمة بالدمع قتيل الأحزاب يوم الفرات
قتلوا ذا الشهادتين عتواً أدرك الله منهم بالتراب
قتلوه في فتية غير عزل يسرعون الركوب للدعوات
نصروا السيد الموفق ذا العد ل ودانوا بذاك حتى الممات
لعن الله معشراً قتلوه ورماهم بالخزي والآفات

وانطلق عبد الله يزيد بن عاصم الأنصاري يرثي من قتل من أصحابه، وخزيمة رضوان الله عليه كان واحداً منهم، قائلاً:

يا عين جودي على قتلى بصفينا أضحوا رفاتاً وقد كانوا عرانينا

أنى لهم صرف دهر قد أضرّ بنا تبا لقاتلهم في اليوم مدفوناً
كانوا أعزة قومى قد عرفتهم مأوى الضعاف وهم يعطون ماعوناً
أعزز بمصرعهم تباً لقاتلهم عـلى النـبي وطوبى للمصابينا[1]
للمصابينا[1]

هذا، وهناك قول بأن ذا الشهادتين توفي في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وأن الذي استشهد مع الإمام علي عليه السلام في صفين هو صحابي آخر يحمل الاسم نفسه، أي خزيمة بن ثابت، إلا أنه ليس المعروف بذي الشهادتين.

وهو قول شاذ لأنه:

أولاً: مخالف لما أجمع عليه علماء السير من أن الذي استشهد في معركة صفين هو خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وأنه لم يمت في عهد عثمان.

وثانياً: لعدم وجود صحابي بهذا الإسم، أي خزيمة بن ثابت، غير المتصف بذي الشهادتين[2].

الإمام عليه السلام يندب إخوانه ويطري عليهم ومنهم ذو الشهادتين:

وقد راح الإمام علي عليه السلام يذكر إخوانه كما كان يسميهم، الذين استشهدوا في معركة صفين ويشيد بهم ويتمنى وجودهم، وكان الحزن يعتصر قلبه على مصرعهم، وهو يرى تخاذل جنده وأتباعه وتباطئهم في الاستجابة له حينما يستحثهم لمواصلة المرحلة الثانية من القتال ضد معاوية وجنده، ومما قاله سلام الله عليه:

(١) أُنظر: وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٣٦٤ ـ ٣٦٦.

(٢) راجع: الإصابة وغيرها من المصادر التاريخية.

...ما ضرّ إخواننا الذين سفكت دماؤهم وهم بصفين إلا يكونوا اليوم أحياء؟ يسيغون الغصص ويشربون النق! قد والله لقوا الله فوفاهم أجورهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم.

ثم راح يندبهم ويصفهم بالأخوة، ويعدد نماذج منهم قائلاً:

أين إخواني الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق؟! أي: استقاموا فيه لم ينحرفوا إلى هنا وهناك، لا يبتغون عنه بدلاً.

أين عمار ؟!

وأين ابن التيهان ؟!

وأين ذو الشهادتين ؟! وهو خزيمة بن ثابت، والإمام سلام الله عليه راح يناديه بلقبه الذي جعله رسول الله ‘ له، أن عدّ شهادته منفردةً قائمة مقام شهادة رجلين.

وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنيّة، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟!

ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة، فأطال البكاء ثم قال عليه السلام:

أوه على أخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة وأماتوا البدعة، دعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه.

وبعد إطرائه عليهم رضوان الله عليهم نادى بأعلى صوته:

الجهاد الجهاد عباد الله[1]...

ذو الشهادتين في كتب علماء الرجال:

كان طبيعياً أن يحتل خزيمة بن ثابت مكانةً قيمةً عند علماء الرجال

(١) أُنظر: نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٢٦٤.

والحديث من الفريقين، لما تمتّع به هذا الصحابي الجليل من إيمان وثيق، وصدق حديث ورواية، استحق بها اللقب العظيم «ذو الشهادتين»، الذي أضفاه عليه النبي الكريم صلوات الله عليه، تضاف إلى سجله الحافل بالمواقف الجهادية طوال حياته الإيمانية المباركة:

ففي رجال الشيخ الطوسي +:

خزيمة بن ثابت من أصحاب رسول الله. وعده مع توصيفه بذي الشهادتين في أصحاب علي عليه السلام [1].

فيما قال عنه البرقي في آخر رجاله:

هو من الإثني عشر الذين أنكروا على أبي بكر حيث قال: ألست تعلم يا أبا بكر أن رسول الله ‘ قبل شهادتي وحدي.

قال: بلى.

قال: فإني أشهد بما سمعته منه وهو قوله: «إمامكم بعدي علي عليه السلام، لأنه الأنصح لأمتي والعالم فيهم».

أما في العيون فقد ذكره: إنه من الذين مضوا على منهاج نبيهم، ولم يغيروا ولم يبدلوا[٢].

وأما الكشي، فقد ذكر أكثر من رواية تبين مواقفه دفاعاً عن الإمامة الحقة المتمثلة بأمير المؤمنين علي عليه السلام منها:

الرواية الأولى: رواية اغتساله قبل قتاله في صفين التي ذكرناها.

الرواية الثانية: رواية أنه سل سيفه في صفين قائلاً: سمعت رسول الله‘ يقول: «عمار تقتله الفئة الباغية» التي ذكرناها.

---

(١) رجال الشيخ الطوسي: ٥.

(٢) راجع أسماءهم في ترجمة جندب بن جنادة في رجال الحديث للخوئي.

الرواية الثالثة: جعفر بن معروف قال: حدثني محمد بن الحسن عن جعفر ابن بشير عن حسين بن أبي حمزة عن أبيه حمزة قال: والله، إني على ظهر بعيري في البقيع إذ جاءني رسول فقال: أجب يا أبا حمزة فجئت وأبو عبد الله عليه السلام جالس، فقال: إني لأستريح إذا رأيتك. ثم قال: إن أقواماً يزعمون أن علياً عليه السلام لم يكن إماماً حتى شهر سيفه، خاب إذن عمار وخزيمة بن ثابت وصاحبك أبو عمرة، وقد خرج يومئذ صائماً بين الفئتين بأسهم فرماها قرباً يتقرب بها إلى الله تعالى حتى قتل، يعني عماراً[1].

وذكر السيد الخوئي + في رجال الحديث سبب تسميته أو توصيفه بذي الشهادتين عن كتاب الكافي، كتاب الشهادات ٥ باب النوادر ٢٣، ح١ في المجلد ٨. ونقل السيد الخوئي أيضاً أقوال جمع من علماء الرجال ذكرنا بعضها أعلاه، فانظر ترجمته هناك مفصلة.

وهكذا تحدث عنه علماء آخرون كالذهبي في كتاب سير أعلام النبلاء، فقد قال عنه: خزيمة بن ثابت الفقيه أبو عمارة الأنصاري الخطمي المدني ذو الشهادتين، قيل: إنه بدري، والصواب إنه شهد أحداً وما بعدها. وله أحاديث.

وكان من كبار جيش علي فاستشهد معه يوم صفين.

حدث عنه ابنه عمارة، وأبو عبد الله الجدلي، وعمرو بن ميمون الأودي، وإبراهيم بن سعد بن أبي وقاص وجماعة.

قتل رضي الله عنه سنة ٣٧هـ ، وكان حامل راية بني خطمة. وشهد مؤتة[2].

وذكره ابن حبان في كتاب الثقات وطبقات المحدثين وغيره مع بعض ما

---

(١) راجع: ترجمة عمار: ٣.

(٢) أُنظر: سير أعلام النبلاء ٢٠: ٤٨٥.

رواه عن النبي‘.

وختاماً

لقد حظي هذا الصحابي الجليل رضوان الله تعالى عليه بما تمنّاه، ألا وهو الشهادة في سبيل الله تعالى، التي ختم بها عمره البالغ سبعين سنة، إذا ما أخذنا بما ذكره بعض من كتب عن خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين، وإن لم أعثر على دليل تاريخي يثبته فيما تيسّر لي من مصادر تاريخية، من أنه ولد قبل البعثة النبوية المباركة بعشرين سنة، فيكون عمره حين استشهاده رضوان الله تعالى عليه سبعين سنة، فهو شيخ كبير، ويعد من مشايخ المسلمين الذين نالوا وسام الشهادة في معركة صفين بعد عمار بن ياسر رضوان الله تعالى عليه.

فسلام عليك نفساً مطمئنةً آمنت بربها، فرحلت إليه راضية مرضية !

الدَّاعية الأمريكي الحاج مالك شباز (مالكولم إكس) الحجُّ وفعلُه التغييري في حياته وفكره

آدم بمبا

مقدمة

إذا كانت وحدة الأصل البشريِّ، وتساوي الشُّعوب مسلَّمة طبيعيَّة، فإنَّ هذه الحقيقة يصعب الاهتداء إليها في ظلِّ العنصريَّات والمواقف المسبقة عن الشُّعوب والأمم، ولا سبيلَ إلى رفع هذا الكَلَف عن وجه هذه الحقيقة الناصعة إلاَّ بتوفير فرَص من « التعارف» الحقِّ بين الناس؛ فالإنسان عدوُّ ما يجهل. وإذا كانت وسائل انتقال الأفراد والجماعات، وأسباب اختلاط الأمم بعضها ببعض متعدِّدة، فإنَّ رحلة الحج تظلُّ قمَّة الوسائل في توفير مسرح حيٍّ لتقرُّب الإنسان إلى غيره، ونبذ العنصريَّة، وصُوَر الاستعلاء العرقيِّ بين الأجناس.

ومن هذا المنطلق، تأتي أهميَّة الوقوف عند شخصيَّة فريدة من رجالات الدَّعوة الإسلاميَّة ممن حملوا اللَّقب الشَّرقي «الحاج» بجدارة إن شاء الله، ويصحُّ أن نُلصِق عليهم طابعاً يحمل «صُنِع في مكّة»، وذلك بفعل التَّجربة

الإيمانيَّة الخصبة التي عايشوها في الحجِّ، تجربة لا نبالغ إنْ قلنا: إنَّها أحدثت في حياتهم وسلوكهم تغييراً لم يُبقِ على شخوصهم السَّابقة إلاّ اللَّحم والدَّم، فكأنَّ الحج آلة عجيبةٌ في «صنع» البشر يخرج منها الحاج «كيوم ولدَتْه أمُّه».

تلك الشخصيَّة هي الحاج مالك شباز (مالكولم إكس سابقاً) «شهيد الإسلام الأوَّل في أمريكا»[1]، الذي تمثِّل قصَّة حياته رحلةً طريفة في الانتقال إلى «الآخر»، والتعرُّف عليه، ونبذ الفوارق العرقيَّة لصالح الأخوَّة الدينيَّة، رحلة وضعتْ خطاً فاصلاً بين مشهدَين متضادَّين من حياة صاحبها، مشهدٌ أوَّل هو الصِّراع بين الرَّجل الأسوَد والأبيض، منطِقه «اللاَّمساس» وحوارهُ «فإنَّهم عدوٌّ لي». أما المشهد الآخر، فمنطقه منطق الانفتاح والأخوَّة، حتى لكأنَّ البطل الذي ظهر في المشهد الأوَّل قد استُبدِل بإنسان آخر مختلف عنه في جميع المواصفات النفسيَّة والسلوكيَّة.

(١) هذا من إطلاق علي صديقي في ورقة قدمها في سمنار جماعة المسلمين في دنفير الأمريكية بمناسبة أسبوع تاريخ السود عام ١٩٨٨، بعنوان:

Malcolm X :martyr Of in Islam America, janaat, al-Muslimeen, Baltimore, ١٩٨٨, USA .

استجلاءً لهذا الفعل التغييريِّ في حياة الحاج مالك شباز، فقد ارتأينا عرض حياته بصورة إجماليَّة، مع الوقوف عند مرحلة الحج لاستخلاص الدُّروس والعِبَر في سيرة حياته المطبوعة، آملين أن تنفع في إقامة الحجَّة لنا في روح الأخوَّة في الإسلام، وفي اضطلاع شعائره بتأمين السَّلام العالمي، وفي تهذيب الإسلام لأتباعه، وجعلهم «رُسَل سلام» إلى أقوامهم ومجتمعاتهم، لا «تماثيل سلام» خرساء!

من جانب آخر، فإنّ من الأجدر بالمسلمين اليوم، ـ خاصَّة ـ في ديار الغرب، ونحن في خضمِّ حملات التفريق في الصف الإسلاميِّ، وحملات تشويه صورة الإسلام، تمثُّل تلك القِيم والرُّؤى الانفتاحيَّة على إخوانهم في ديار الإسلام، تلك الرُّؤى التي انتهجها الحاج مالك شباز وأمثاله، حتى يبقى العُود الإسلاميُّ عوداً واحداً قويّاً يستحيل على الأعداء معالجته وكسره، وحتى تبقى تلك المنارات الإسلامية وهَّاجة، وشاهدة على الغرب، والشعوب الأخرى، في عقر ديارها بأنَّ الإسلام دينُ التَّسامح والوسطيَّة، وأنَّه العلاج الشافي لأمراضهم الاجتماعيَّة.

أوَّلاً: الإسلام في أمريكا والإطار الاجتماعي والديني

إذا كان جلُّ المؤرِّخين يقفون ببداية تاريخ أمريكا بالملاح كريستوف كولومبس (١٤٥١-١٥٠٦)، فإنَّ الحقائق التاريخيَّة المتضافرة قد برهنتْ على أنَّ كولومبس مسبوقٌ إلى اكتشاف أمريكا من قِبل المسلمين الإسبان المهاجرين، بل إنَّ كولومبس قد استعان بخرائط أولئك ومعلوماتهم في الإبحار إلى الشاطىء الأمريكي[1].

(١) عبدالله أحمد الداري، الوجود الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكيَّة، (جدة: الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، ١٤٠٣ هـ)، ص١٢.

أما في الجانب الأفريقي، فإنَّ المؤرخ المسلم ابن فضل العمري (صاحب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) قد أورد في كتابه ذِكر الملك أبي بكر سلطان مالي عام (١٣١٢ م) الذي أبحر من شواطىء المحيط الأطلسي في غرب أفريقيا إلى خليج مكسيكو الأمريكيَّة[١]. وتوجد مساندةٌ قويَّة لهذه الرِّواية لدى البرفسور Leo Wiener بجامعة هارفرد في دراساته عن أفريقيا واكتشاف أمريكا، إذ استعان بالعلاقات اللغويَّة الوظيفيَّة بين بعض لغات غرب أفريقيا ولغات السُّكان المحلِّيين في الشاطىء الآخر عند خليج مكسيكو. كما برهن الباحث Ivan V. Sertima بجامعة Rutgers نيوجرسي بدراساته المستفيضة على وجود سكان أفارقة معظمهم مسلمون في أمريكا قبل اكتشاف كولومبس للقارة الأمريكيَّة[٢].

وقد أورد هؤلاء الباحثون كثيراً من القرائن والمرويَّات والوثائق التاريخية الدالَّة على أنَّ الإسلام قد حلَّ بالديار الأمريكيَّة منذ أن وطىء العبيد الأوائل تلك الأراضي، وظلَّ بينهم ـ بشكل أو بآخر ـ حتى ورثها الأجيالُ اللاَّحقة على الرغم من الاضطهاد، وحملات محو الهويَّة، وإرغام المسلمين على تغيير دينهم، وأسمائهم، والتَّفريق بين الأسر والقبائل.. هذا، وقد عُرِف في تاريخ السُّود بأمريكا علماء مَّمن وصلوا أمريكا في غضون ١٧٣٠، وفاجأوا الأمريكيِّين بمستواهم المعرفيِّ، واستعان الباحثون ببعضهم في ترجمة بعض

(١) Sulaymam S. Nyang, Ialam in the United States Of America, (Chicago: ABC International Group Inc. ١٩٩٩), P ١٢.

(٢) وضع هذا الباحث كتاباً شهيراً بعنوان: «لقد أتوا إلى هنا قبل كولومبس They Came here before Columbus» عام ١٩٧٦ م، وقد أثار هذا الكتاب جدلاً في الأوساط الأكاديميَّة بمعلوماته وآرائه الجديدة المثيرة. ومن جانب آخر، فإنَّ Alex Haley صاحب السيرة الذاتية «الجذور» الذي أكَّد فيها على أصوله الإسلاميَّة في غامبيا، قد استطاع أن يبرهن على صدق دعواه، وتتبَّع القرائن التاريخيَّة حتى وصل إلى قريته على ضفاف نهر السنغال. هذا، وتاريخ العبيد المسلمين في البرازيل وقوَّتهم في الصمود وقيادتهم انتفاضات مسلَّحة ضد «الأسياد» المسترقين (١٨٣٥) مشهور.

الوثائق، من أولئك: يارو محمد، وجوب بن سليمان، والأمين جاي، والشيخ محمود بقاقا، ومحمد علي بن سعيد، وأيوب بن سليمان ديالو، وعبدالرحمن[1].

وعلى الرغم من إلغاء الرِّق، وتجارة العبيد والتَّلويح بشعارات الحريَّة والديمقراطيَّة بعد الحرب الأهليَّة الأمريكيَّة (١٨٦٥ ـ ١٨٦١)، فإنَّ وضع السود الاجتماعي في الولايات المتحدة الأمريكيَّة خاصَّة في ولايات الشَّمال، لم يطرأ عليه تحسُّن ملموس، حيث فرض عليهم حظر التَّجوُّل بعد الغروب في بعض المدن، ومُنعوا من دخول المطاعم، وركوب سيارات النَّقل الجماعي، وحرِموا من الخدمات الطبيَّة في المستشفيات، وفُصِل بينهم وبين البيض في الكنائس، والملاهي.. وقد كانت أيَّة معارضة أو احتجاج على هذا الوضع، أو المناداة إلى المساواة تؤدّي بالمعارض إلى السجن، أو القتل أو أيّ شكل من أشكال التخويف على أيدي العصابات العنصريَّة التي أسَّسها البيض، والتي كانت تمارس أعمال العنف على مرأى ومسمع من الشرطة.

نتيجةً لهذه الحالة، شهدت بدايات القرن العشرين نشأة الكثير من الحركات القوميَّة في أمريكا خاصَّة بين السُّود، مثل حركة EIKS، وجماعة Aipha Phi Aipha، وتراوحت تلك الحركات بين متطرِّفة ضدَّ البيض، وأخرى معتدلة خاصَّة لدى الطّبقة المثقَّفة. كما تراوحت المرجعيَّات الفكريَّة لتلك الحركات بين علمانيَّة، ووثنيَّة، وإسلاميَّة ومسيحيَّة، وإنْ كان الغالب على معظمها المزجُ بين تلك المرجعيَّات الدينيَّة.

أُولى تلك الحركات حركة مرقس غارفي Marcus Garvey التي أطلق عليها «الرابطة العالميَّة لترقية الجنس الأسود Universal Negro Improvement Associatation» التي نشطت منذ عام ١٩١٦، وهي حركة

(١) The Muslim Almanac, P ١٤٨.

سياسيَّة اجتماعيَّة، دعا السُّود إلى تحرير أنفسهم من الظُّلم الاجتماعيِّ. قويت حركتُه لكنها انحلت بعد نفي مرقس من الولايات المتحدة.

وثانيتها حركة «الهيكل المغربي المقدَّس للعلوم Moorish Holy Science Temple»، التي أسَّسها الكاريبي تيموثي درو (١٨٨٦-١٩٢٩) Thinothy Drew في مدينة Newark بولاية جيرسي. وتسمَّى فيما بعد بالشريف درو علي، رافعاً نسبه إلى الأشراف بالمملكة المغربية، زاعماً أنَّ أصل السُّود في الولايات المتحدة من آسيا، وأنَّهم ينحدرون من قبيلة كانت تسكن مكَّة وتُدعى «شَباز»[١]. كانت دعوته خليطاً من المعتقدات الدِّينية الشرقيَّة والمبادىء الاجتماعيَّة، دعا السُّود إلى الارتداد عن المسيحيَّة واعتبرها دين البيض الآريِّين، وأمرهَم باعتناق الإسلام باعتباره ديانة أجدادهم الأصليَّة. كمّا دعا إلى انفصال السُّود عن البيض في ولاية خاصَّة بهم داخل الولايات المتَّحدة، واسم خاصٍّ يحملونه[٢].

ادَّعى الشريف درو علي النبوَّة، وكتب كتيِّباً سماه (القرآن المقدس)، وهو ـ كما يصفه جاك كونراي ـ «مزجٌ غريبٌ لآيات القرآن الكريم، وجُمل من الكتاب المقدس، وكلمات مرقس غارفي، وقصص حول حياة يسوع، يربط هذه العناصر كلها بياناتٌ وتفسيرات المتنبي (درو علي)»[٣]. وقد لاقت دعوة

---

(١) Yvonne Yazbeck Haddad, The Muslims of America, p ٥٥.

(٢) كان يضيف على أسماء الأتباع البادئة «ال» أو «بيه» إشعاراً بأصولهم الآسيوية، وقد ظهرت نفس الممارسة عند محمد غارفي في إعطاء أسماء شرقيَّة لأتباعه زعم أنَّها توحى إليه، وأنَّ ما يعطى لأيِّ شخص من اسم، فإنّما هو اسمه الحقيقي. كما ظهرت الممارسة نفسها عند إليجا محمد، بإضافته اللاحقة «X» إلى أسماء أتباعه، إشارةً إلى أسمائهم الأصليَّة غير المعلومة. وعلى كل، فإنَّ هذه الممارسة صورةٌ من الرَّفض لثقافة البيض والاندماج فيهم، ووسيلة لاستعادة الهويَّة المفقودة لدى السُّود في أمريكا.

(٣) دينس ووقر، «الإسلام بين الأرقاء السود في شمال أمريكا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر»، مجلة مجمع البحوث الإسلامية، إسلام آباد، باكستان، مج ١٤، عدد ٤، ص ٣٣ _٤٤.

درو علي قبولاً موسَّعاً، وراقت أذواق الطَّبقة الكادحة من السُّود في أوائل القرن العشرين، وكانت لها هياكل ومعابد نشطة في ديترويت، وشيكاغو، ونيويورك، وغيرها من الولايات في أمريكا، وراجت عقائد الطائفة بسرعة وقويت حتى وفاة المؤسس ١٩٢٩. وعلى الرغم من الانحرافات الواضحة في تعاليم درو علي وبُعدها عن الإسلام الصحيح، ومزجها بين الشَّعائر والعقائد الإسلاميَّة والمسيحيَّة، فإنَّها تعتبر الواجهة الأولى التي أيقظت في الأمريكيّين السُّود الشعور بالاعتزاز بهويَّتهم، وتقوية الوعي بضرورة العودة إلى الإسلام، والارتباط بأرض أفريقيا وآسيا.

ثالثة تلك الحركات حركة «أمَّة الإسلام» التي ظهرت في غضون (١٩٣٩) على يد والاس فارد محمد، في أحياء ديترويت الشعبيَّة، وكان بائعاً متجوّلاً يتاجر في الأقمشة والملابس. بدأ دعوته بالانخراط في الأُسَر، وتذكير السُّود بأصولهم الأفريقيَّة، مؤكِّداً لهم أنَّه جاءهم ليحملهم على «اكتشاف الذَّات». بعد كسبه لجماعة وتأسيس منظمته، وخروجه من الدَّعوة السريَّة، أسَّس مدارس للبنين والبنات، وأنشأ مؤسَّسات تجاريَّة، ومعامل خاصَّة للسُّود.

بحلول عام ١٩٣٤، اختفى فارد محمد فجأةً، وكان قد أوكل أمر الحركة إلى روبرت (إليجا) بول (١٨٧٥ _ ١٩٧٥) Elijah poole فكان أوَّل ما قام به إليجا ادِّعاء الألوهيَّة لفارد محمد، وادِّعاء النبوَّة والرسالة لنفسه[١]، وسمى الحركة «أمَّة الإسلام المفقودة ـ الموجود في مجاهل أمريكا الشمالية» The Lost-found Nationof IsLam in the wilderness of North America وزعم بأن الرَّجل الأبيض هو الشَّيطان نفسُه المذكور في الكتب السماويَّة. ونشط في تأسيس أماكن عبادة لأتباعه وسماها «معابد / هياكل Temples»،

(١) Lincoln Chartes Eric, The Black Muslim in the Unired States, P ١٧٥.

ولم يكن فرق كبير بينها وبين الكنائس. كما طوَّر المؤسَّسات التجاريَّة والمصانع، وأغرى البسطاء بالوعود الإلهيَّة للجنس الأسَود[1].

عرفت حركة إليجا محمد عصرها الذَّهبي أيام الحاج مالك شباز، ولما توفي إليجا محمد، تولَّى زعامة الحركة ابنه والاس (وارث الدين) الذي أدخل تصحيحات جذريَّة في تنظيم الحركة وفي تعاليمها، حيث أبطل دعاوى أبيه التحريفيَّة، وأعلن عن اتِّباعه لمنهج أهل السُّنة والجماعة في الاعتقاد والعمل، هذا، وقد انفصلت عن والاس جماعةٌ بزعامة لويس فرخان، ملتزمةً بالدَّعاوي القديمة، وبالإيمان بنبوَّة إليجا محمد وتعاليمه وعقائده الباطلة.

ومهما يكن من مآخذ على هذا التنظيم في عهده الأوَّل، فإنَّ من الملامح الإيجابيَّة فيه قوَّة الجانب الرُّوحي، ونجاحه في شحن الأتباع بديناميَّة التَّطهير الذاتي، والتمسك بالهويَّة، والاحتراز المفرط من الذَّوبان في الثقافة الأمريكيَّة.

ثانياً: مالكولم، المولد والنَّشأة

وُلِد مالكولم ليتْل بتاريخ ١٩ مايو ١٩٢٥ في أوماها ولاية نبراسكا. والده (j.Earl Little) من مواليد جورجيا، ووالدته (Lousie Norton)، نازحة من بلاد جزر الكاريبي. وهو الابن الرابع من بين سبعة أبناء رزقت بهم «لُوِسا»[2]، وله ثلاثة إخوة آخرين من أبيه رُزِق بهم في زواجه الأوَّل قبل

(١) Ibid, P ١٣٥ _ ١٣٦.

(٢) هم بالترتيب: ويلفريد Wilfred، وهيلدا Hilds، وفيلبير Philbert، ومالكولم Malcolmوريجينا Regina، ووِيسلي Wesley.

زواجه بـ «لويسا» أمِّ مالك[1]. وقد صادف مولد (مالكولم) وصباه تصاعد الأزمة العنصريَّة، واضطهاد السُّود في الولايات المتحدة، وكان صباه مهدَّد بشبح العنصريَّة البيضاء ضد السُّود في الولايات الشَّمالية، وضدَّ أتباع حركة مرقس غارفي التي كانت أسرته زعيمة إحدى تجمُّعاتها؛ إذْ كان أبوه داعية (غارفي) مشهور، حاز اللَّقب الشَّرفي «الكاهن = **Reverend**» كما حاز لقب «الرَّشيد = **Elder**» لتزعُّمه الطائفة الغارفيَّة بأوماها، ونشاطه في تنظيم أمورها، وإلقاء الخطب.

يتَّضح من سيرة حياة (مالكولم) وتصريحات إخوانه أن الإيديولوجيَّة الغارفيَّة وتعاليمها كانت الموجه لحياة الأسرة، وسلوك أفرادها، فإضافةً إلى تزعُّم الأب للطائفة الغارفيَّة، وكون الأم محرِّرة لأخبار الجماعة ونشر تعاليمها في بعض الصُّحف، حرص كلٌّ منهما على تلقين الأبناء مبادىء الحركة، فكان الوالد يصطحب مالكولم وأخوَيه إلى المعبد حيث يلقي الخطب، ويلقِّن الأتباع تعاليم الطائفة. أما الأمُّ، فكانت إذا اجتمعت الأسرة حول النار بعد العَشاء، تحكي للأطفال عن ماضي أجدادهم السُّود العريق، وتنفث فيهم روح الاعتزاز بعنصرهم الأسود[2].

---

(١) كان زواج مالكولم إكس في تاريخ ١٤ يناير ١٩٥٨، بالأخت بيتي Betty X، وكانت مثله أفريقيَّة أمريكيَّة، وتابعة لجماعة (أمَّة الإسلام)، ورزقت منه بستِّ بنات هن: (١٩٥٨) Attelah، (١٩٦٠) Qubilah،(١٩٦٢) Ilyash، (١٩٦٤) Amilah، (١٩٦٥) Malaaka & Malikah وهما توأمتان وُلدتا بأشهر بعد اغتياله.

(٢) يوكِّد مالكولم وإخوته أنَّ والدتهم حرصت على زرع الروح النقديَّة في نفوسهم منذ نعومة أظفارهم، ولم يكن لها انتماء محدَّد إلى دين على الرغم من اتِّباعها التام لتعاليم الحركة الغارفيَّة وبرنامجها الغذائي، يقول ويلفرد شباز أخو مالكولم الأكبر: «كانت تقرأ علينا الإنجيل، ونناقشها معاً، لكن أمي كانت تصطحبنا دائماً إلى مكان مختلف، كانت تأخذنا إلى الكنيسة المعمدانية؛ لاعتقادها أن لكل واحد من المذاهب الدِّينية المختلفة شيئاً ينبغي عليها اكتشافه.. كانت تأخذنا إلى شهود يهوه. وكانت تأخذنا كذلك إلى كنيسة المعمدان... وفي ظلِّ هذا المناخ من الحركات والطوائف الدينيَّة المتعدِّدة إلى جانب المسيحيَّة التقليديَّة نشأ مالكولم وإخوته، تشجعهم الأم على دراسة الأديان، ولكن دون الانخراط في دين معيَّن أو التَّعصب له على حساب الأديان الأخرى، وقد ظهر أثر هذه التربية جلياً في مالكولم وإخوته، واهتمامهم بالمناقشات الدينية On the Side of my People, p ٥٠ _ ٥١

ولا شكَّ أن هذا الجوَّ النِّضالي الذي تفتَّح فيه (مالكولم) على الحياة، قد انطبع على تفكيره، ووجَّه الكثيرَ من تحرُّكاته وتصرُّفاته خلال مختلف مراحل حياته. وإذا أخذنا في الحسبان الوسطَ العامَّ في مدينة Lansing، والأسر الأخرى في مجتمع السُّود، أدركنا مدى الأثر الأيديولوجي الذي كان تربةً خصبةً لنماء الوعي القوميِّ والديني لدى جيل مالكولم من أبناء الأمريكيِّين السُّود.

ومن الأحداث التي شحذت نفسيَّة مالكولم وحفرت في ذاكرته أسى دفيناً، وكراهيَّةً للبيض منذ نعومة أظفاره، ما رواه في سيرته عن حادثة إحراق منزل أسرته على يد عصابة «كو كلوس كلان» العنصريَّة في أوماها[1]. حيث أتى رجال مقنَّعون ذات ليلة؛ فكسَّروا النوافذ، وأشعلوا النار في المنزل، وأطلقوا عبارات عنصريَّة، وطالَبوا الأسرة بالهجرة من بين أظهُرهم. وقد لخص مالكولم هذه الحالة بقوله: إن مولدَه وصباه كان في الرُّعب والخوف[2].

والأمرُّ أنَّه حين أشعل البيض النار في المنزل، وهرعت الأسرة للنجاة بنفسها، يقول مالكولم: «جاء رجال الإطفاء والبوليس البيض، ووقفوا يتفرَّجون على المنزل المشتعل إلى أنْ أتت النار على المنزل بأكمله»!

---

(١) Ku Klux Klan عصابة عنصريَّة إرهابيَّة سريَّة، تأسست منذ عام ١٨٦٥ بعد الحرب الأهلية الأمريكية، في ولاية تينيسي Tennessee، لمحاربة الجنوبيين الجمهوريين من البيض، وجميع «الملوَّنيين» في الولايات المتحدة الأمريكيَّة، ومعارضة انتقالهم أو سكناهم في بعض المدن والأحياء، وتقوم العصابة بهجومات منتظمة على اليهود والسود بكسر نوافذ بيوتهم، أو إحراقها، وإتلاف ممتلكاتهم، وربما الاعتداء عليهم بالقتل، وممارسة صُور الاستفزاز والتخويف. ولا تزال تلك العصابة نشطة بأشكال وهيئات متعدِّدة حتى وقتنا الحاضر.

(٢) Malcolm X Speaks, p ١٣٥.

وفي عام ١٩٣١ حين كان مالكولم في سن السَّادسة تفاقمت المأساة حين عُثِر على جثة والده طريحاً على سكة حديديَّة، وكان تقرير البوليس أنَّ قطاراً صدمه، بينما أصرَّ مجتمع السُّود أنَّه ضُرِب وجُرح قبل أن يلقى تحت عجلات القطار.. يقول مالكولم: «كنت في السادسة من عمري آنذاك، لكنَّني كنت قبلُ قد تعلَّمت أنَّ كون الإنسان أسودَ في هذا البلد مثار مشاكل»[١].

بعد موت عائل الأسرة وكاسبها، ظلَّت الأمُّ تجاهد وتكدُّ لتربية الأطفال وتأمين حاجاتهم، لكن المناخ العنصريَّ لم يكن ليرحم الأرملة المغلوبة وأيتامها الصِّغار، فلم يكن من اليسير الحصول على عمل منزلي لدى البيض، ولم ينفع إيقاف أخوَي مالكولم الحدَثَين الدِّراسة ومساعدة الأمِّ في طلب لقمة العيش، ومع تزايُد وطأة الفقر، والمطالب الماليَّة كانت الأم تشعر من يوم لآخر بحدَّة النفس، وزيادة القلق على مصيرها وعلى مصير أبنائها.

هذا، وقد زادت استفزازات الجيران البيض للأسرة في حدَّة نفس الأم، حتى وصَموها بالاضطراب النفسيِّ، ومن هنا تدخَّلت جمعيات الرعاية الاجتماعيَّة، لأخذ الأطفال وتوزيعهم على مراكز رعاية الأطفال؛ فكان ردُّ الأمِّ الرفض القطعي لهذا التفريق بينها وبين أبنائها، ولم يزل رجال الرعاية بنفوذهم الحكومي حتى انتزعوا منها أبناءها، وكان ذلك إيذاناً باضطراب نفسيٍّ محقَّق للمرأة، أدخِلت بعدها في مصحَّة نفسيَّة وظلتَّ بها أكثر من عشرين عاماً.

بعد أن تفرَّق الأطفال أيدي سبأ بين مراكز رعاية الأطفال، وُكِّل مالكولم إلى أسرة أفريقيَّة أمريكيَّة، ومن ثم إلى مركز لرعاية الأحداث في ميشغان، ولم يرُقه المكان بأيِّ حال؛ إذ كان هو الأسودَ الوحيدَ بين الأطفال البيض، وكان بعض المربين البيض يستفزُّونه بتعليقات عنصريَّة متكررة، وكان سبب

(١) DeCaro, On the Side of my People, p ٤٧.

خروجه من إحدى تلك المراكز، وهروبه من الدِّراسة سخرية أحد المرِّبين منه حين ذكر له مالكولم أنَّ أمنيته أن يصبح محامياً، فنصحه المعلِّم بأن يختار مهنة النِّجارة؛ لأنَّ المحاماة لا تنسجم واقعاً مع «زنجي».

انتقل مالكولم بعد ذلك إلى السَّيدة «إيلاَ» Ella، وهي أخته من أبيه، وقد كانت سيِّدةً فاضلةً محترمة، قال عنها مالكولم: إنَّها أول امرأة سوداء رأى فيها الفضل والثِّقة والاعتزاز بنفسها.. قامت هذه المرأة بدور فعَّال في مساندة مالكولم في شتى مراحل حياته، وكان أكبر تلك المواقف إمدادها إيَّاه بالمال لأداء فريضة الحجِّ مما كان له الأثر المباشر في التغيير الجذريِّ في حياة مالكولم وفكره، وحركته الدينية.

وفي شوارع ديترويت، اجتمع مالكولم ليتل بمجموعة من الشباب السُّود المتسكِّعين في البارات، وعلى أبواب المتاجر، وفي الأزقَّة المظلمة، وكان من أهمِّ أنشطتهم بيع المواد المختلفة من أحزمة، ومناديل يد، وسجائر، وعطور، ومسح أحذية... كانت تلك المهن الشَّريفة لديهم، لأنَّ النشاط الفعليَّ لدى بعضهم كان في تهريب المخدرات، والسَّطو على المنازل، والسَّمسرة بين البغايا وزبائنهن.

سرعان ما انخرط مالكولم عملياً ونفسياً في هذا المجتمع، وحاز لقب

«أحمر ديترويت Detroit Red»؛ فبدأ يلبس على طريقة الـ «هيبْ»: بذلة طويلة، حزام ضيِّق، وقبَّعة ذات ريش طويلة، وصبغ الشَّعر باليود الملوَّن والمليِّن، وتدخين الأفيون.. وبالجملة، كان مالكولم «قد فقد ـ كليّاً ـ شعورهَ بهويّته، وفقَدَ الشُّعور بذاته»[1]. ووصَف مالكولم تلك الحالة التي ألجأت الآلاف من أمثاله من السُّود إلى مثل هذا العيش والتردي بقوله: «حين تنخرط في مجتمع الغيتو، مثلما كنتُ أنا، فإنَّك تدخل في عالَم الوحوش، ويصبح البقاء للأقوى قانوناً محتوماً»[2].

تعدَّدت نشاطات مالكولم غير القانونيَّة حين عمله خادماً في إحدى المراقص الصَّاخبة في حيِّ هارلْم؛ حيث كان المكان ملتقى تجار الأفيون، ولاعبي «الحظ»، وسماسرة البغايا، وعصابات السَّطو على المحلات التجاريَّة، وهكذا وجد مالكولم نفسَه منجرفاً في تجارة الأفيون التي درَّت عليه الأرباح الطائلة.. «ظللتُ أضاعِف أرباحي، وبضاعتي، وقلَّما كنت أنام.. كانت في جيبي رزمة ضخمة من المال..»[3]. وقويت شوكةُ مالكولم حتى كوَّن عصابة إجراميَّة للسَّطو على البيوت وسرقة المجوهرات، تألَّفت تلك العصابة من صديقة «شُورْتي»، ورفيق آخر، ومن بِنتَين بيضاوَتين: صوفيا وأختها.

وعلى الرغم من وصف مالكولم هذه الفترة بحياة «الأوحال»، فإنَّ ما يُحمد لهذه الفترة في حياة مالكولم تعميقه لخبرته بحياة عامَّة الناس، ووقوفه ـ في كلِّ دقيقة من تلك التَّجربة ـ على جروح المجتمع الدَّامية، من تشرُّد، وبطالة، وظلم، وشقاوة، وسرقة، ودعارة، وسطو على الأبرياء، واحتيال، وإدمان مخدرات، وكل ما يتَّصل بذلك من أدواء اجتماعيَّة، يقول مالكولم:

---

(١) Malcolm X, Autobiography, p ٥٤.

(٢) Ibid, p ١٠٢.

(٣) Ibid, p ٩٩.

«كان أكبر زبائني المبشِّرون، وزعماء الحركات الاجتماعيَّة، ورجال الشُّرطة، ومختلف المسؤولين عن حياة الآخرين ومصيرهم»[1].

ولا شكَّ أن هذه التَّجربة الحيَّة كان لها أثرها القويُّ في حدَّة حساسيَّة مالكولم لعلاج تلك الأدواء، وفي تعميق معرفته بنفسيَّات «المرضى» و«الضَّحايا» و«الذِّئاب» ومعرفته للدَّواء المناسب لكل حالة.

ثالثاً: السِّجن والاهتداء إلى الإسلام

ألقي القبض على (مالكولم إكس)، وهو في الواحد والعشرين من عمره، بعد محاولته إصلاح ساعة يد ثمينة سرقها من أحد البيوت، وحُوكم وأُدين بتهمة السَّطو المسلَّح على المنازل، والحيازة غير القانونيَّة للسِّلاح الناري، وزُجَّ به في سجن شارلستون عام ١٩٤٦ لقضاء عشر سنوات، فكانت تلك الحادثة كفيلةً لأنْ يعود (مالكولم) إلى نفسه ويثوب بعض الشيء، ويحدِّث نفسَه عن أحوال بني جلدَته السُّود، ووضعِهم في المجتمع الأمريكيِّ العنصريِّ. بل إن (مالكولم) ـ وإنْ كان يعترف بجُرمه ـ رأى أن شدَّة العقوبة لم تكن بفداحة الجُرم بقدر ما كانت بسبب عشرته للبنت البيضاء، صوفيا وأختها، وإشراكه إيَّاهما في عمليَّات السرقة مما أثار ثائرة القاضي عليه. وقد صرَّح القاضي لمالكولم بذلك لدى إسماعه إيَّاه قرار المحكمة بقوله: «ليس لك في بنات البيض سبيل، وسوف يلقِّنك هذا درساً في الابتعاد عنهن»!

وعلى كلٍّ، فإن مبادرة عائلة (مالكولم)، ودعوتهم إيَّاه إلى «التَّوجُّه إلى القبلة والصَّلاة لله» جاءت في أوانها حين بدأ مالكولم يشعُر أنَّه بحقٍّ رهينُ محبَسَين: سجن جسدي، وسجن روحيٍّ، فكانت دعوة إليجا هي المخرج لانتشاله ـ أوَّلاً ـ من أشدِّ السِّجنَين، ألا وهو السِّجن الرُّوحي.

---

(١) Lomax E. Louis, When the Word is Given, p ٥٠.

بقي (مالكولم) في سجن «نورفولك» حتى مارس ١٩٥٠ حين حُوِّل مرَّة أخرى إلى سجن شارلستون بتهمة العصيان، ولكن السَّبب الحقيقيَّ وراء هذا التَّحويل كان للحدِّ من تأثير (مالكولم) على السجناء، وقد جاء في تقرير السِّجن ما يؤكِّد ذلك إذ قيل عنه: «مراسلاته ترتكز على العقيدة الإسلاميَّة، وعلى الكُره الشَّديد للجنس الأبيض»[١].

بالعكس، لم يجد هذا التَّحويل من نشاط (مالكولم) الدَّعوي، بل استمال إلى الإسلام زمرةً من رفاقه كالأخوَين: أسبورن ولوروي Osborne & LeRoy، والأخ مالكولم جارفيس Jarvis، وقد كان تصرُّف تلك العصبة من السُّجناء ملفتاً للنَّظر والاهتمام منذ عهدها الأوَّل بسجن شارلستون، حيث طالب هؤلاء إدارة السِّجن بأن تكون وجباتهم اليوميَّة حسب النِّظام الغذائي الذي وضعه إليجا محمد، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير، وطالبوا بأن يوضعوا في زنزانات مواجهة للقبلة.

من جانب آخر، فإن (مالكولم) قد ألفت إليه الأنظار بملَكته الخطابيَّة، فكان يناظر الأساقفة الزَّائرين للسجن، ويبهتهم بملاحظاته، ويحرجهم باعتراضاته الكثيرة على الإنجيل، مثل اعتراضه على الصُّورة النمطيَّة التقليديَّة للمسيح حيث يُصوِّره البيض بعيون زرقاء، وشعر ذهبي، وبشرة بيضاء.. فقد أفحم (مالكولم) مناظريه بأنَّ المسيح كان أسوَد ملوَّناً، أو على الأقلِّ كان من شعوب الشَّرق الأوسط، لا مِن الجنس الآري[٢].

وهكذا، لم يكن (مالكولم) يدع فرصةً إلاّ ويصدع فيها بإسلامه، ويعلن

---

(١) DeCaro, On the Side of my People, p ٩٠.

(٢) Ibid, p ٩١.

عما يراه الحقَّ. وظهرت بوادر شخصيَّته القويَّة منذ مكثه في السِّجن، ووقوفه في خندق المظلومين. ففي أبريل ١٩٥٠، كتب إلى مفوّض السجن السيد ماكدويل McDowell خطاباً حادَّ اللَّهجة دفاعاً عن أخ مسلم أودع زنزانةً منعزلة بسجن نورفيلك. ابتدأ (مالكولم) خطابه بقوله: «بسم الله العليم الحكيم، الحق الحيِّ، وباسم نبيِّه المقدس.. السيد إليجا محمد... (!!)»[١]. وأثقل الخطاب بالوعيد للكفرة والظالمين، وندَّد بالذين يظلمون الناس لا لذنب إلاَّ لأنَّهم يصلون مستقبلين الشَّرق (القبلة). وكتب مرَّة أخرى خطاب احتجاج إلى المفوض نفسه، يندِّد فيه بأحد الموظفين الذين منعوا أحد المسلمين من الانخراط في برنامج محو الأميَّة، ولم يفت (مالكولم) في ذلك الخطاب أن يسخر من حالة التَّردي الخلقيِّ في السِّجن حيث يحظى «اللُّواط» بما يسهِّل لهم شذوذهم، ويُمنع المسلمون المنضبطون من حقوقهم الطبيعيَّة.

إجمالاً، يمكن القول: إنَّ مرحلة السِّجن كانت السَّانحة التي استغلَّها (مالكولم) أحسَن استغلال لتشكيل نفسه ثقافياً وعلميّاً؛ فأكبَّ على مكتبة السجن الداخلية، والتحق بفصول تكوينيَّة في المراسلة، ومهارات التَّعبير الكتابي، ونمَّى ذخيرته اللغويَّة بحفظ معجم لغويٍّ ضخم. أما من الناحية الثَّقافية، فقد عكف على كتب التاريخ والحضارة الأفريقيَّة والأمريكيَّة، والفلسفات الشرقيَّة. كما نمَّى ملَكته الخطابيَّة بالانخراط في فرقة الخطابة والمشاركة في المناظرات.

وإلى جانب المطالعات الكثيرة، فإنَّ مالكولم قد وجد في السِّجن بعض النُّزلاء ممَّن هم على قدر عال من الثَّقافة والمعرفة، وتعلَّم منهم الكثير، ومن أولئك الذين أشاد بهم في سيرته الذَّاتية، الشاب الأسوَد الذي أشار إليه باسم

(١) Ibid, p ٩٢.

Bimbi يقول عنه: «كان بيمبي يكسب كلَّ نقاش يخوضه، وكان الرَّجلَ الأوَّلَ الذي رأيتُه يفرِض احتراماً مطلقاً بكلامه». لكن بيمبي كان ملحداً، وكان تعلُّق مالكولم به بسبب حديثه العميق في الأديان، وقد سبق بنا أنَّ والدة مالكولم قد أرضعته وإخوانه على التفتح للمناقشات الدِينية. وهكذا، بالمطالعات الطَّويلة، والتعلم الذاتي، عالج مالكولم داءَ الجهل في نفسه، لإدراكه أنَّ الجهل هو السَّبب الأساس في سلوكه الإجراميِّ... صرَّح بهذه الحقيقة في خطاب له إلى الضابط مأمور السجن حين طلب التَّحويل إلى سجن آخر، قال: «إن السبب الأساس في طلبي الانتقال إلى سجن نورفيلك رغبتي في تثقيف نفسي، فالتَّسهيلات التربويَّة هنالك غير موجودة في غيرها، فلو أني كنت أكملتُ تعليمي لما كنت الآن قابعاً في الحبس. إنَّني اليوم أقضي عشر سنوات جزاء جريمتي الأولى، إنَّ ذلك لا يجرح كثيراً.. لقد أدركتُ خطئي منذ أمد بعيد، لأنَّه من المستبعَد أن يسطو رجلٌ متعلِّمٌ على منازل الناس»[1].

ظلَّ «مالكولم» بهذا السِّجن حتى أغسطس ١٩٥٢، حيث أطلق سراحُه، وانتقل بعد ذلك إلى ميشغان مع أخيه ويلفرد Wilfred. وعلى الرغم من عدم اجتماع (مالكولم) بقائده إليجا محمد وجهاً لوجه منذ إسلامه إلى خروجه من السِّجن (في أغسطس ١٩٥٢)، فإنَّ العلاقة بين الرَّجلين كانت قد توطَّدت عبر المراسلات الأسبوعيَّة المنتظمة بينهما، استطاع إليجا محمد من خلالها أن يلقِّن (مالكولم) فلسفته الدِّينية، وأثبت (مالكولم) كذلك نجابته وإخلاصه وجدارته بحمل لواء حركة إليجا.

مالكولم إكس والانخراط في (أمَّة الإسلام)

(١) Letter from Malcolm little to Me . Dwyer, Norfolk peison Colony Transportation Board, ٢٨ July, ١٩٤٧, PF.

ما كاد المريد النَّبيه (مالكولم) يخرج من السِّجن، ويلحق بقائده، ويضيف إليجا على اسم مالكولم اللاحقة «إكس»[1] إلاّ وترقَّى في سلك التَّنظيم، وشهدت الحركة كذلك ـ آنذاك ـ عصرها الذهبي وتطوُّرها المطَّرد في عدد الأتباع، ونوعيَّة التنظيم.

وعلى سبيل المثال، فقد كان من عادة وزراء الحركة في ديترويت أن يقصدوا مدينة شيكاغو مقرَّ الحركة العام في مناسبة الاحتفال بعيد الحركة السنويِّ للاستماع إلى إليجا، وكانت القافلة الأولى التي أقلَّت (مالكولم إكس) مع بقيَّة وزراء الحركة إلى شيكاغو عام ١٩٥٢ سيارتَين. وما أن باشر (مالكولم) عمَله في الدَّعوة للحركة، واستمالة الأتباع الجدد من أحياء السُّود الفقيرة (الغيتو)، ومن البارات، وزوايا الزِّقاق المظلمة، وعلى أبواب الكنائس، وفي تجمُّعات السُّود.. إلاّ وتضاعف أتباع الحركة قبل أن يحول الحَوْل، فإذا (مالكولم) يحدو قافلةً من السَّيارات إلى شيكاغو عام ١٩٥٣ مجموعها ٥٢. فلم يكن من القائد إليجا محمد إلا المسارعة في تعيين (مالكولم) في مرتبة «وزير كامل Full Minister» بالهيكل رقم (١)، وهو الهيكل الأوَّل الذي أسَّسه المعلم فارْد محمد نفسُه.

ومنذ أن تفرَّغ (مالكولم) للعمل بحركة (أمَّة الإسلام)، أصبح يقضي ليلَه ونهارَه في تجنيد الأتباع الجدد، وإقامة المحاضرات، وتأسيس الهياكل (المساجد) الجديدة، وكثُرت أسفاره من أدنى الولايات إلى أقصاها، وأثمرتْ تلك الجهود الدعويَّة الجبارة، وشخصيَّة (مالكولم) المؤثِّرة في تضخُّم أتباع الحركة من حوالي ٤٠٠ عضو زمَن التحاق (مالكولم) بالحركة، إلى حوالي

(١) في الرياضيات، يُرمَز بـ(X) إلى قيمة غير محدَّدة. وكانت إضافته إلى أسماء المسلمين السود إشارةً إلى أسمائهم القبليَّة المفقودة بفعل الحملة الاستعباديَّة، وتعبيراً عن رفضهم للأسماء المعطاة لهم مِن قبَل أسيادهم البيض.

أربعين ألف عضو.

هذا، وكان من الملامح المميِّزة للحركة ـ قبل عهد مالكولم ـ تمركُزها على الطَّبقة الفقيرة من العُمال في المصانع، وسكان الأحياء الفقيرة المنعزلة، لكنْ بحلول عام ١٩٥٧، كانت حركة (أمَّة الإسلام) قد استهوت كثيراً من المثقَّفين والأكاديميِّين، ورجال الأعمال، ورجالات الفكر والأدب السُّود.

وبالمِثل، فإن المستوى الأيديولوجي للحركة فرض حضوره في المجتمع الثقافيِّ الأمريكي، وجعل مختلفَ الطَّوائف الدينيَّة والسياسيَّة والفكريَّة تعير (أمَّة الإسلام) وطروحات الوزير مالكولم أُذناً صاغيةً، واعتباراً خاصاً. وفي تلك الفترة (٦٠-١٩٦٩) اكتسبت (أمَّة الإسلام) شهرةً محليَّةً وعالميَّة موسَّعة، وذلك بمشاركة (مالكولم) في المناظرات والمحاورات الإذاعيَّة والتلفزيونيَّة، وإلقائه الكلمات في مدرجات المعاهد والكليَّات، وقيام بعض الصُّحف والمجلاَّت العالميَّة الشهيرة باستطلاعات متكرِّرة عن الحركة، أمثال مجلة: لايْف، ولوكْ، ونيوسْويك، ورَايْدِرْ دايجيستْ[1]. ونجحت أجهزة FBI في تلك الفترة في دسِّ بعض عيونها في الحركة؛ للتجسُّس عليها وعلى حياة مالكولم الخاصَّة، فكان من تلك العيون أحد حرَس مالكولم المقرَّبين.

ومن المعارك الفكريَّة العنيفة التي خاضها (مالكولم إكس) في تلك الفترة معارضته لدعوة الاندماج، وسياسة السَّلام التي كان يروِّج لها المسيحي الأفرو ـ الأمريكي مارتنْ لوثر كينغ (١٩٢٠-١٩٦٤ ,Martin L. King)، حيث احتجَّ مالكولم أنَّ النِّظام السِّياسي والاقتصادي الأمريكيَّ مؤسَّسٌ على التَّمييز العنصريِّ والظُّلم في أساسيَّاته وتفاصيله، وأن كلَّ اندماج في مثل هذا الجهاز لن يزيد إلاّ في تعاسة الفقراء والمغلوبين من طبقة السُّود العاملة.

(١) Clifton E. Marsh, From Black Muslims to Muslims, p ٥٥.

واعتبر مالكولم ـ كذلك ـ المسيحيَّة جهازاً من أجهزة الاستغلال في يد الأمريكيِّ الأبيض، ونفى ملاءمتها روحيّاً للرَّجل الأسوَد. يقول: «المسيحيَّة دين الرَّجل الأبيض، فالإنجيل في يد الرجل الأبيض وتفسيره الخاص له، قد كان السِّلاح الأيديولوجي الأفعَل لاستعباد ملايين الناس غير البيض»[1]. وعضَّد (مالكولم) موقفه ذلك بعقيدة «شيطانيَّة الأبيض»، والعداوة الحتميَّة بين الأبيض والأسوَد التي قال بها المعلم فارْد محمد. لكن (مالكولم) ألْمح إلى أنَّه لا يقصد بـ «شريَّة الأبيض» أفراد البيض بقدرِ ما يقصد بها جنسهم، «لسنا نعني أيَّ فرد من البيض، بل إننا نعني المجموع العامَّ لتاريخ الرجل الأبيض، وقسوتَه الجماعيَّة، وشرورهَ، وجميع تصرُّفاته الشَّيطانيَّة ضدَّ غير البيض»[2].

وبقيام الحركات التَّحرُّرية في حقبة الستينيات في أفريقيا وآسيا، ودعوتها إلى الاستقلال، وخَوض بعض الشُّعوب (الفيتنام مثلاً) حروباً ضروساً ضدَّ القوى الاستعماريَّة... غدت دعوات (مالكولم) وحركته أكثر مصداقيَّة، وأكثر قوَّة في إقناع الجماهير بعقيدة «شيطانيَّة البيض». ومنذ تلك الفترة، أصبحت حركة (أمَّة الإسلام)، تكتسب بُعداً دوليّاً، ومساندةً خارجيَّة من لدُن زعماء الحركات التَّحرُّرية في أفريقيا وآسيا، وجزر المحيط الهندي الغربيَّة، وكان (مالكولم) بالطَّبع، مركزَ الضَّوء في هذا الاعتبار.

جديرٌ بالذّكر أنَّ قائد الحركة الأعلى إليجا محمد، على الرغم من ارتياحه بتطوُّر الحركة، وتضاعُف أعداد الأتباع، لم يكن راضياً بأن يسلك (مالكولم) بالحركة بعداً انفتاحيّاً دُوليّاً، أو ينحوَ بها منحىً أيديولوجيّاً، وكان ذلك ـ بالذَّات ـ بداية الخلاف بينه وبين مريده المخلص. بل بينه وبين الجيل الشَّاب

(١) Malcolm X, Autobiography, p ٢٤١ _ ٢٤٢.

(٢) lbid, p ٢٦٥.

من أتباعه ممَّن كانوا يشاطرون (مالكولم) وجهتَه الانفتاحيَّة.

ومن ناحية أخرى، فإنَّ الحركة قد شهدت أزمتها الداخليَّة منذ عام (١٩٦١) حين تألَّق نجم (مالكولم)، ودبَّ الحسد في نفوس السِّلك الوزاريِّ داخل الحركة، فأُشيع أنَّ مالكولم يريد أن يستأثر بالحركة، وأنَّه يؤلِّب بعض وزراء الحركة الشَّباب على مركز سلطةِ الحركة في شيكاغو... ويبدو أن بعض الوقائع تواطأت في تقوية تلك الإشاعات في نفس إليجا محمد، منها تمرُّد ابنه والاس محمد عليه عام ١٩٦٣، ووصفُه تعاليم والدهِ بالضَّلال والخروج عن الإسلام الصَّحيح، ولما أبعِد عن الحركة، ووُصِف بالنِّفاق، لم يشجبْ (مالكولم) فعلته، ولم ينطقْ في حقِّه بسوء.

إضافةً إلى ذلك، فإنَّ فضيحة إليجا محمد الجنسيَّة عام ١٩٦٣ جاءت لتعصف بالكثير من هالة القداسة التي كان (مالكولم) قد أضفاها على قائده الرُّوحي، ولتُرغمه على إعادة حساباته في قيادة الحركة، والشُعور بتأنيب الضَّمير في سَوق الجماهير المتحمِّسة إلى مصير غير مأمون تحت قيادة إليجا؛ فبدأ يكرِّس جهودَه في المشكلات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة لأتباع الحركة، ويوسِّع اهتماماته بالعالَم الخارجي.

كان اتِّساع الخَرق وعكْر الصَّفو بين (مالكولم) ومعلِّمه إليجا في أواخر عام ١٩٦٣، حين اغتِيل الرئيس الأمريكي جون كيندي، وسُئِل (مالكولم) عن رأيه في هذا الاغتيال؛ فأبدى مالكولم شماتته بكيندي مشيراً إلى أنَّ الدَّهر قد أنصف منه، ولقيَ جزاءه في تواطؤ حكومته في سلسلة من الاغتيالات، مثل اغتيال الرئيس Patrice Lumumba والأمريكي Medgar Evers وغيرهما.. وقد كان هذا التَّصريح الجريء سبباً في تبرّي إليجا منه، وعزْله عن وزارة الهيكل رقم (٧) بنيويورك، ومنعه عن الحديث باسم الحركة لمدة (٩٠) يوماً. لكن (مالكولم) لم ينتظر انقضاء العدَّة، بل أعلن انفصالَه عن الحركة وتعاليمها

العنصرية.

ومن المعلوم، أنَّ إليجا محمد كان على يقين بانتهاء فعاليَّة «النُّسخة الإسلاميَّة» التي قدَّمها للأمريكيِّين السُّود، وعدم صلاحيَّتها لتطلُّعات الجيل الجديد، غير أنَّ انفصال مالكولم المعلن عن حركته كان صفعةً قويَّة، وتهديداً مباشراً لزوال ملكه، وأنَّ ذلك سوف يعصف بالعرش الذي بناه لنفسه على مزاعم غير ملتئمة مع الواقع والحقيقة، فعقيدة نبوَّة إليجا، وعقيدة حرب الهرمجدون التي يهلك الله فيها البيض، وتحلُّ مملكة السُّود، والدَّعوة إلى إعطاء السُود ولايةً خاصَّة بهم في أمريكا... كلُّ تلك الدَّعاوى كان الدَّهر قد عفا عليها.

وإضافة إلى مالكولم، فقد رأى إليجا سلسلة من الاعتراضات المتكرِّرة والتَّمرد على تعاليمه وادِّعاءاته خاصَّة لدى أقرب الناس إليه، وأولاده ممَّن يقفون ـ عن كثب ـ على خبايا حياته وتصرُّفاته.. خرج عليه ابنه والاس محمد أكثر من مرَّة، وخرج عليه حفيده حسن شريف في ١٩٦٤، وخرج عليه ابنه أكبر محمد عام ١٩٦٥ وقد أشاد كلُّ أولئك بمالكولم، ورفضوا النَّيل منه، وسمَّى أكبر محمد إسلامَ والده بـ «صناعة محليَّة» (homemade) وأنَّه لا يعكس الصُّورة الأصلية للإسلام.

منظمة «مسجد المسلمين المتحد Muslim Mosque Inc»

في مارس ١٩٦٤ أعلن (مالكولم) انفصاله عن (أُمَّة الإسلام)، وتأسيسَه لمنظمة خاصَّة باسم «مسجد المسلمين المتحد»، وأنَّ منهجه المنهج الإسلامي السَّلفي، ودعا جميع المسلمين إلى العمل معه من أجل رفعة الإسلام، وأسَّس هيئة سياسيَّةً أخرى باسم: الوحدة الأفرو ـ الأمريكيَّة Afro _ Amerecan Unity.

كان الهدف من تأسيس تلك المنظمة جمع الأمريكيِّين السود ـ بصرف النظر عن أديانهم ـ للعمل مجتمعين لتحقيق حقوق الإنسان. وعلى ذلك، فإنَّ (مالكولم إكس) رجع عن مواقفه المعادية للبيض؛ إذْ دعاهم إلى العمل في مجتمعاتهم لمحاربة صُورَ الظُّلم، والعمل لتحقيق الأخوَّة الحقَّة بينهم وبين السود، غير أنَّه لم يفتح منظمته الفتيَّة للبيض، معلِّلاً ذلك أنَّ تحقيق الأخوَّة بين البيض والسُّود لا يتمُّ إلاّ بتحقيق الاتِّحاد والتَّعاون بين السُّود أنفسهم[١].

وواضحٌ من هذا الإطار أنَّ جميع المقدِّمات كانت تنبىء بأنَّ (مالكولم) يخطِّط لحركة عالميَّة ذات شأن خطير في المطالبة بالحقوق الإنسانية، فَمِن دعوته إلى الوحدة الأفريقيَّة (Pan - Africanism) انطلق إلى المطالبة بحقوق شعوب العالَم الثالث، والاهتمام بـ «الإخوة» في أمريكا اللاَّتينية، و«الإخوة» الصِّينين.. ومن تصريحاته الشَّهيرة قوله: «ينبغي على الرَّجل الأسوَد الأمريكي أن يدرك أنَّ على عاتقه مهمَّة كبرى في استدعاء الولايات المتحدة الأمريكيَّة للامتثال أمام محكمة الأمم المتَّحدة بتهمة أساسيَّة في خرق حقوق الإنسان»[٢].

---

(١) Coiftonn E, From Black Muslims to Muslims, P ٦٠.

(٢) Malcolm X, Autobiography, P ٣٦١.

ومن الخطوات الناجحة في تلك الفترة تكثيف مالك أسفاره ولقاءاته بالعلماء، والمؤسَّسات الإسلاميَّة، وبالزُّعماء والقادة في أفريقيا وآسيا، فزار غانا، ومصر، والسودان، والتقى السُّفراء من مختلف البلدان.

والجدير ذكره أنَّ مالك في ظلِّ جماعة (أمَّة الإسلام) لم يكن بمقدوره الانفتاح على الجماعات الدينيَّة والسياسيَّة الأخرى خارج الولايات المتحدة؛ إذ كان من سياسة إليجا محمد الحفاظ على جماعته داخل «شرنقة» مغلقة تمنعها من الاختلاط بالخارج وتبادل الآراء. وقد صرَّح مالك بذلك في مقابلة منشورة له بصحيفة «صونداي غلائدر Sunday Glender» الجامايكيَّة، قال: إنَّه طالما تاق إلى زيارة البلدان الكاريبية لكنَّ قائده لم يكن ليسمح له بذلك، قال: «بصفتي مسلماً أسوَد، وفي حركة المسلمين السُّود، لم يكن بمقدوري السَّفر إلى هناك [الكاريبي]؛ لأنَّ السيد محمد لم يكن يشجع أتباعه على الذِّهاب إلى أيِّ مكان شاءوا، بل كانت تشغلهم مشاغل أمريكا عما عداها».

حتى إنَّ الجولة التي قام بها إليجا إلى أفريقيا وآسيا (عام ١٩٥٩-١٩٦٠) كانت بإيعاز من مالك، يقول: «لقد زرت تلك البلاد بصفتي مندوباً للسيد محمد، وبالطبع، فقد كنت واضع هذه الرحلة ومخططها. وكان السبب الأوحد في عدم عودتي إلى تلك البلاد، أنَّه ما كان ليدعني أذهب، فلم يكن يشجِّع أيّاً من أتباعه على السَّفر إلى مكة أو أفريقيا»[١].

رابعاً: مقتله والمؤامرة العالميَّة

شهدت الأشهر السابقة لاغتيال الحاج مالك حرباً شعواء معلنة عليه من جبهات مختلفة، مثل مكتب CIA، ومكتب FBI. واتَّهمته الحركات القوميَّة للسُّود بالانحراف عن قضيَّة السُّود نحو «العرب» وغيرهم. وكانت صحيفة

(١) DeCaro, On the Side of my People, P ٢٦٧.

Muhammad Speaks لجماعة (أُمَّة الإسلام) تنال منه، وتلصق به التهم، وتصفه بالنفاق والارتداد، ولقي كذلك أتباعه حظَّهم من المضايقات والاستفزازات، وضروب التَّخويف؛ فضُرب أحدهم ضرباً مبرحاً لقي على إثره حتفه، واُضرِمت النَّار في منْزل مالكولم قبل مقتله بأسبوع، كاد هو أسرته يهلك حرقاً لولا أنَّ الله سلَّم. وبلغت أعمال التَّرهيب مبلغها حتى أن مالك كان على أهبة للتصريح بأسماء الأشخاص الموكّلين باغتياله.

كما أنه قد عرف في تلك الفترة أصعب التَّجارب وأمرَّها في تحوُّل الأصدقاء، وتخاذل الصِّحاب، وظلم ذوي القربي حتى أن شقيقَه «فلبير» الذي تنكَّر له، ووقف في صفِّ إليجا محمد، ألحق به التهم ووصفَه بالهوس ومرض اضطراب النَّفس الذي أودى بأمِّهم[1]. ومن صُور المضايقات والتَّحريض والتآمر العالمي ضدَّ مالك منعه من دخول فرنسا بأيام قبل مقتله حين تقدَّم لزيارتها ولإلقاء كلمته في مؤتمر الطُّلاب الأفارقة، وكان هذا المنع بطلب من الولايات المتحدة، والسنغال، وساحل العاج[2]. ولا أدلَّ على فداحة تنكُّر الأقارب والأصحاب له من موقف شقيقه المذكور آنفاً المعادي له، حتى حين قُتِل لم يشيِّع جنازته؛ لأنَّه ـ حسب وصفه ـ مات ميتة ضالة[3].

وهكذا جاءه أجله المحتوم في اجتماع OAAU المفتوح ظهيرة الأحد ٢١ فبراير عام ١٩٦٥، وكانت كلُّ الإرهاصات في ذلك اليوم تصرخ باقتراب خطر داهم، وأنَّ بالمكان ضغائن شر تتأجَّج حقداً وناراً، وتتأبَّط شراً،

(١) Goldman, The Death and Life Of Malcolm X, P ٢٣٢.

(٢) Ibid, P ٣٣١.

(٣) Clifton E. Marsh, From Black Muslims to Muslims, P ٦٧.

وبفراسته الصادقة شعر مالك بما بيَّته القوم له، وصرَّح لأصحابه في صالة الانتظار عن تخوُّفه وتوجُّسه.. «إنّني لا أشعر بارتياح نحو هذا الاجتماع، أشعر أنه ليس بالأجدر أن أكون هنا. إنَّ أمراً غريباً يحدث هنا يا إخواني!» وكان من المفارقة أن يختم المقدِّم حديثه قائلاً: «إخواني، إنني أقدِّم إليكم رجلاً ما كان ليبخل بحياته من أجلكم». ويتقدَّم مالك إلى المنصَّة، ويلقي السلام على الحضور، ولا يكاد الحضور يردُّ تحيَّته حتى يعلو في مؤخرة الصالة هرجٌ وشجار، وحين تنصرف الأنظار إلى الضَّوضاء، يشب ثلاثة إلى المنصة وثبة أشقى قوم صالح؛ فيحاول مالك تهدئتهم.. «أيُّها الإخوة اهدأوا!» فتنطلق رصاصاتٌ إليه...

هذا، وإذا تضاربت الأقوال والتَّصريحات حول هويَّة قاتليه، فإنَّ مما لا شكَّ فيه أنه كان ضحيَّة فكره ومنهجه الجديد، وينبغي علينا التركيز على هذا الجانب حتى نقدِّره حقَّ قدره، ولا يشغلنا البحث الحثيث عن أولئك المجرمين عن تدبُّر فكره، ودعم ذلك والإبقاء عليه مشتعلاً منيراً بإذن الله. وقد ألمح مالك إلى هذا الواجب في حقِّ دعوته بقوله: «ينبغي أن تدركوا أنّ ما أقوم به جدُّ خطير، لأنَّه تهديد مباشرٌ للنظام العنصريِّ الدُّولي بأجمعه، لأنّه تعريةٌ للتفرقة بأشكالها الدوليَّة، وعليه، فإنِّي إن أُمتْ أو أقتَل؛ فاطمئنُّوا أن ما حرَّكته لن يتوقَّف أبداً»[1].

إذن، لم يكن بخاف على الحاج مالك مغبَّة ما يقوم به، ووعورَة الطّريق الجديد الذي سلَكه، فقد علَّمه التاريخ أنَّه ما أتى رجلٌ بمثل ما أتى به، وما قصدَ قاصدٌ مثل غايته، إلاّ وتكالبت عليه أيدي المكر، وطواغيت القهر والاستعباد، إنَّ الحاج مالك ـ بكلِّ بساطة ـ لم يعُد ذلك السِّمسار في شوارع

(١) Eugene V. Wolfenstein, The Victims of Democracy: Malcolm X, P ٣٢٨.

هارلم، ولم يعد ذلك المسلم الأسوَد المطبِّل لـ «نبي» مهوَّس، والذي تلتفُّ حوله أمَّة من بُسطاء النَّاس أو متعصِّبيهم ممَّن تحركهم العواطف العرقيَّة وممَّن يعيشون على أفيون الترَّهات، وينتظرون إلاَهَهُم «فارد» الهالك / المختفي أن يأتيهم ويهلك عدوَّهم الأبيض، ويضع مملكة السُّود، ويجعل الأرض جنة لهم... ولكنَّه أصبح ذلك المنذر الرَّشيد، المنبذ للتعصُّب، المعلِّق مصير قومه وتحريرهم بتحرير المغلوبين ـ جميعهم ـ على الأرض بصرف النَّظر عن ألوانهم وأشكالهم وأديانهم.

وإن كان مالك تنبَّأ بمصيره، فإنَّه قد كشف لنا بعض تفاصيل المكر المحاك ضدَّه، فقد أدرك بقراءته لسنن الصِّدام بين الحق والباطل، ومشاهدات التآمر أن أحزاب المكر في الخفاء جهاز معقَّد، وجيشٌ لوبيٌّ من شخصيات، وأحزاب وحكومات مختلفة كلُّها تستفيد من القضاء عليه، ولكن الذي يعلِّق الجرس ويجهز على الفريسة، ما هو إلاّ أضعف تلك الأحزاب، وربَّما أقلُّها انتفاعاً في هذه الصَّفقة الآثمة. وبالجملة، أدرك (مالك) أنَّه لن يقوم بالحلقة الأخيرة في هذه المؤامرة إلاّ أقرب الناس إليه ـ ويا للمفارقة ـ أولئك الذين تحمَّل المخاطر من أجلهم، وأعلن الحرب من أجل خلاصهم من براثن الظلم والاستغلال. قال ذلك لمحدِّثه «جوليان Julian Mayfield» زعيم حركة الأفرو ـ الأمريكيَّة في أكرا (غانا) حين سأله ذاك عن «الأيدي الخفيَّة» فأجاب أنَّه إذا ما وقع له أيُّ شيء فلا يظنَّن أحدٌ أنَّ ذلك بالضَّرورة من المسلمين السُّود وحدَهم، فهي مؤامرة عالميَّة، طالما أنَّه قد «عَوْلم» القضيَّة الأفرو ـ الأمريكيَّة.

تجارب مهمَّة في حياة الحاج مالك شباز وقانون المثير والاستجابة

لعلَّ قراءة نفسيَّة لسيرة حياة مالك وشخصه، وتطبيق قانون «المثير

والاستجابة» على المواقف الحياتية التي مرَّ بها مالك، يوقفنا على رهافة طبع مالك، وحدَّة شعوره لتلك المواقف، وبالتالي اتِّخاذه موقفاً محدَّداً صارماً تجاه كلِّ تجربة. وعلى ضوء هذا المفهوم، فإنَّنا نقف عند بعض تجارب مالك باعتبارها صدمات نفسيَّة خضع لها مالك، واتَّخذ موقفاً محدَّداً منها، فأثَّر هذا الموقف في حياته تأثيراً ملحوظاً. ولعلَّ أُولى تلك الصدمات المثيرة حرق البيض العنصريِّين منزل عائلة مالكولم، وقتلهم لوالده، يلي ذلك سخرية معلم المدرسة منه، وفضيحة إليجا الجنسيَّة، ومفاجأته في مكة بكَرم الضِّيافة العربيَّة، وبروح التوادد والإخاء والمساواة بين السُّود والبيض وجميع الألوان... ولنا وقفة عند الأخيرَتين.

أولاً: فضيحة إليجا الجنسيَّة

كانت صدمة الفساد الخلقيِّ الذي كشفت عنه صحيفة UPI وعن علاقة إليجا محمد الجنسيَّة غير الشرعيَّة باثنَتين من سكرتيراته، أعنفَ الصَّدمات التي هزَّت نفس (مالكولم) وطبعت بصمتها على حياته وتصرُّفه ونظرته إلى «الإنسان» فيما بقي من عمره. ولثقة مالكولم البالغة بأستاذه و«نبيِّه» إليجا محمد، فإنَّ (مالكولم) ما كان ليطمئنَّ إلى حرف من التحقيق الصحفي في حقِّ أستاذه، غير أن طبيعته المتعطّشة إلى سبر الأمور، ومواجهة الحقائق، وقطع الشَّك باليقين ألجأته إلى مساءلة البِنتَين عن علاقاتهما بإليجا؛ فأكَّدتا له الخبر، وأنَّ كلاً منهما قد أنجبت منه طفلاً، وكانت قوَّة الصدمة عنيفةً، والفضيحة كبيرةً لأن يغضي عنها مالكولم، فهرع ـ عبثاً ـ إلى القرآن الكريم وإلى الإنجيل علَّه يجد فيهما مبرِّراً لفعلة أستاذه وقائده الروحي الشَّنعاء، فكان (مالكولم) مثل الغريق الذي يتشبَّث بأيِّ جسم متحرِّك... وطبعاً، لم يسَعه إلاَّ السفر إلى شيكاغو ومساءلة الأستاذ.. وبكلِّ ثقة اعترف الأستاذ

بفعلته بل برَّرها بالاستشهاد بقصص الكتاب المقدَّس المفتراة على أنبياء الله المعصومين، قال: «إنَّني أنا داود، فحين تقرأ عن أخذ داود حليلةَ غيره، فأنا ذاك داود، وإذا قرأتَ عن نوح الذي سكرِ فهو أنا، وإذا قرأتَ عن لوط ذاك الذي ضاجع ابنته مِن صُلبه، فقد اكتمل في جميع تلك الصفات(!!!)»[1]. وبهذا الافتراء، كان إليجا يريد أن يوغل في تدجُّله وتضليله لمريده المخلص، ويسجِّل لنفسه مكسباً جديداً، ويبني حول نفسه هالةً أخرى من المناعة والقداسة، ولكنَّ الجرح في قلب المريد كان عميقاً، مستعصياً على الاندمال، وكانت الصدمة عنيفة لبعثه من موتة الانقياد العمياء لقائده.

ثانياً: صدمة الجهل بأساسيَّات العبادة

لعلَّ أعنفَ صدمة أشعرت الحاج مالك بالحيرة والخجل من نفسه منذ أن حطَّ رحالَه في الأراضي المقدَّسة إدراكُه مدى جهله بأساسيَّات الدين الإسلامي وأوَّلياته، وفي زيارته لهذه الأماكن دروس وعبر يجمُل بنا قراءتها وتمثُّلها في وقفاتها في تلك المشاعر المقدَّسة.

ومن تلك المواقف التي وقفها واستنبط دروساً إيمانيَّة فيها المواقف الآتية:

١ ـ مكة المكرمة والشُّعور بالكرامة

كان نزول الحاج مالك شباز بمكة المكرَّمة، نقطة تحوُّل في نظره إلى نفسه وتقديره حقَّ قدره، تقديراً ليس منشأهُ الصَّلت والكبر، ولكنه تقديرٌ مظلَّل بجلال عظمة الخالق الجبَّار. وإذا جاز أن نستعير مثَلهم الساخر «كَلب الملك، سيِّد الكلاب»، فإنَّ إجراءه على العبد المسلم الذي يستشعر أنه عبدُ ملك الملوك، يفضي به ـ حتماً ـ إلى الشُّعور بأنه «سيِّد العباد»، وأنه واقفٌ ببقعة

(١) Malcolm X, Autobography, P ٢٩٩.

هي «مكرَّمة» من لدُن ذي الجلال والإكرام... يقول مالك: «طوالَ سِنِيَّ التِّسع والثَّلاثين على هذه الأرض، كانت مدينة مكة المقدَّسة أوَّل بقعة وقفت فيها أمام خالق كلِّ شيء، مستشعراً بأنني إنسان كامل».

وهكذا رجحت تجارب ساعات معدودة، ورجحت مشاعر بقاع قليلة العدد على تجارب أزمنة وأمكنة غير محصورة، وتواطأ المكانُ والزمان على تغيير نظرة الحاج مالك عن نفسه؛ لأنَّه ـ طوالَ تسع وثلاثين حجج ـ كان ينظر إلى نفسه من خلال معادلة (رجل أسوَد # رجل أبيض)، وكانت الغلبة الحتميَّة دائماً للقطب الأبيض، مما جمَّع في نفس (مالكولم) مركَّبات نقص ومعاداة لهذا الأبيض. أما في هذا الموقف الخالي من تلك المعادلة، فقد شعر بالكرامة، ووازن نفسَه بنفسِه ومن خلالِ عظمة الرَّب الذي خلقه.

٢ ـ عرفات (موت النبي الأسوَد والشيطان الأبيض)

كانت عرفات والوقوف بها المسرحَ الفعليَّ الذي ساعد الحاج مالك شباز على مراجعة حقَّة لماضيه، ودفعه إلى تعديل جذريٍّ لرؤيته وإدراكه لحقيقة العالميَّة الإسلاميَّة، ومحو شائبة الألوان والأعراق. وبتماحي الألوان، فإنَّ العالم قد ظهر على حقيقته أمام مالك، وظهر الرجال مجرَّدين عن الأصباغ الملوَّنة.. يقول: «في مكَّة، استذكرتُ السنوات الإثني عشرة التي قضيتُها مع إليجا محمد، كأنها تمرُّ أمامي بحركة بطيئة، وأظنُّ أنه ليس بمقدور أيِّ إنسان إدراكُ عمق ثقتي الكاملة في شخص إليجا محمد.. ولكنَّني من عَلى أقدَس بقعة في الدُّنيا، أدركتُ مدى خطورة إيلاءِ مثل هذا الاعتبار لإنسان، خاصَّة اعتقاد تلقِّيه نوعاً من الوحي الإلهي، أو إعطاؤه نوعاً من العصمة»[١].

(١) Malcolm X, Autobiography, P ٢٩٩.

يكشف لنا هذا التصريح عمق الرابطة بين الحاج مالك وقائدِهِ الأول، وعلى الرغم من انفصال (مالك) عن حركة إليجا، فإنَّ مكانةَ هذا الرَّجل كانت عميقة الجذورِ في نفسِه؛ إذ إنَّ (مالك) كان قد أسلم نفسه إليه طوعاً، وانقاد له مثل «ميت بين يدَي غاسله»، أو كما يقول مالك نفسه: «كنت قد صدَّقته وآمنت به أكثر مما يصدِّق هو نفسَه». وما كان ليجتثَّ تلك العروق العميقة من أصولها إلاّ موقفٌ إيمانيٌّ عنيف كهذا، موقفٌ بين يدَي ربِّ العالَمين. يقول (مالك): «أشعر كأنني مثل رجل ظلَّ مُنوَّماً ـ بطريقة مَّا ـ تحت تأثير إنسان آخر. أشعر أنَّ ما أقوله الآن، وما أشعر به الآن أنه نابعٌ من نفسي، ومن قبلُ، كان فكري وكلامي كلُّه من وحي إليجا محمد. إنني الآن أفكِّر بعقلي الخاص»[1]. وبهذه الكلمات يعلن (مالك) عن يقظة ووجود جديد لنفسه، كما يعلن ـ إعلاناً خطيراً ـ عن موت «الإله / النبي الأسوَد»؛ فما دام الحاج (مالك) قد وقف شامخاً فوق أعلى قمَّة مباركة في الأرض المقدَّسة، وعَرف ـ لأول مرَّة ـ نفسه كإنسان مكرَّم، فقد تضاءل أمام عينيه كلُّ مخلوق حاشا الملك الجبار، وبطُل لديه سحرُ كلِّ «مُنوِّم مغناطيسي». إنَّ جاهليات الفكر والاعتقاد، وادِّعاء العصمة والنُّبوة لإليجا، موضوعةٌ تحت قدَميْ الحاج (مالك) اليقظ، الرّافض لتلقِّي الأوامر على الرِّيموت. {**أو منْ كانَ ميْتاً فأحيَيناهُ وجعلنَا له نوراً يمشي به في الناس...** }.

ومن الطريف أنَّ هذه القاعدة في تجرُّد الناس عن ألوانهم، قد طالت الحاج مالك نفسه، وقد وصفت زوجته «بيتِي شباز» هذه الحقيقة بقولها: «مضى إلى مكَّة وهو مسلمٌ أسوَد، وأصبح هنالك مسلماً فحسب»[2]، فكأنَّ

(١) Breitman, Malcolm X Speaks, P ٦٨.

(٢) Clifton E. Harsh, From Black Muslims to Muslims, P ٦١.

مالك انسلخ من لونه كما تنسلخ الحيَّة من جلدها، أو أنَّه بحمله للقلب (الحاج)، سقط عنه قناع «الأسوَد» لأنَّ الحجَّ انفتاحٌ على العالَم، انفتاحٌ لا يستقيم والانغلاقَ الانغلاق في لبوس من العنصريَّة والطائفيَّة والكره للآخرين. هذا، وقد اعترف مالك بأنه كان منغلقاً في لبوس اللَّون قبل سفره إلى الحج، حين كشف عن سرِّ عدم سفره إلى بلاد الكاريبي طوال سنوات عمله تحت قائده إليجا؛ لأنه كان «مسلماً أسوَدَ، وفي حركة المسلمين السُّود».

٣ ـ الحج والوعي الوحدويُّ بين البشر

من نافلة القول الإشارة إلى أنَّ أهمَّ درس تعلَّمه الحاج مالك في رحلة الحج وفي أداء شعائره هو الوعي بضرورة وحدة البشر لا وحدة المسلمين فحسب، وتعلَّم ـ فوق ذلك ـ بعض الإجراءات العمليَّة لتحقيق تلك الوحدة وخصائصها.

ومن تلك الإجراءات:

أ ـ إنَّ من لزوميات تحقيق الوحدة العالميَّة الإيمان بوحدة الخالق سبحانه، واعتماداً على ذلك فقد دعا مالك أمريكا إلى القَبول العاجل لعقيدة وحدانيَّة

الخالق (The immediate acceptance of the oneness of God)، وأكَّد أنَّ ذلك هو الخيار الأوْحد أمام أمريكا للخروج من مأزق العنصريَّة، والنَّجاة من الانهيار المحدق بها.

ب ـ إنَّ الوحدة العالميَّة تنبني على أساس من الوحدة المحليَّة سواء أكانت وحدة إقليميَّة أو عرقيَّة أو دينيَّة. تعلَّم مالك ذلك حين لاحظ أنَّ الحجاج ـ على الرغم من تماحي الفوارق بينهم ـ يجتمعون أفواجاً أفواجاً، حيث الأفارقة مع الأفارقة، والباكستانيُّون مع الباكستانيِّين... تجمعهم أخوَّة صادقة. كان التطبيق المباشر لهذا المفهوم حين أسَّس مالكولم جماعته الجديدة، وأكَّد في دستورها أنَّ وحدة السُّود والبيض لابدَّ أن تنطلق ـ أوَّلاً ـ من وحدة السُّود أنفسهم[1].

ملامح مميزة لشخصيَّة مالك وتأثيره الفكري في الشباب

أولاً: الملامح المميزة لشخصيّته ودعوته

في ختام هذا العرض عن حياة مالك شباز، يجمل بنا طرحُ سؤال ومحاولة الإجابة عليه: تُرى ما الملامح المميزة لشخصيَّة مالك شباز، وما الآثار الإيجابيَّة، والمكاسب الدعويَّة التي اضطلعت بها رحلة الحجِّ في حركة الحاج مالك؟ ولا شكَّ أنَّ الإجابة على تلك الأسئلة تستدعي الإطالة والاستقصاء، غير أننا نحاول الاختصار بسردِ أهمِّ تلك المميزات كما يلي:

١ ـ إنَّه تميَّز بالرُّوح الحركيَّة، والبعد عن الأيديولوجيات التي ليس وراءها عملٌ، فكلَّما تعلَّم شيئاً انطلق مباشرةً إلى تنفيذه، وإخراجه في حيز

(١) DeCaro, On the Side of my people, P ٢١٦.

الواقع، ولعلَّه قد تشرَّب تلك الرُّوح منذ نعومة أظفاره من طبيعة الحركة الغارفيَّة التي كان والده داعيتها ورئيس تجمُّعها في مدينة «أومَاهَا». ويعدُّ هذا الجانب أحد الأسباب الأساسيَّة في انسلاخ مالك عن حركة أستاذه إليجا؛ إذ رأى أنَّ أستاذه يجمع الناس حول فضفاض من الفكر، ويسوقهم إلى هدف غير ملموس، فدعا مالك إلى ربط الدِّين بالحياة، وتفعيله في حياة الناس: في الاجتماع، والسِّياسة، والاقتصاد، وقد صرَّح بهذه النظرة في حديث له بمعهد Tuskegee بعد انفصاله عن (أمَّة الإسلام) بقوله: «إذا كان إليجا يجلس وينتظر، فإنني لا أجلس وأنتظر الله أن يأتي (يُعرِّض بفارد محمد المنتظر). إنَّني أؤمن بالدِّين، ولكن أؤمن بدين يشمل الحركة السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، تلك الجوانب التي من شأنها بناء جنَّة هنا على الأرض ريثما ننتظر الجنة الأخرويَّة»[1].

٢ ـ إنَّ مالك قد مثَّل بحياته الأمل للضائعين في الهداية والصَّلاح، وأن الصعود من الحضيض الخُلقيِّ، إلى قمة المُثل العليا ممكن وليس من المستحيلات. بل إنَّ (مالك) يؤكِّد بأنَّ التغيير يكون أظهر، وأكبر وقعاً في الإنسان الذي كان في الدَّرك الأسفل من التردّي والانحطاط.. «لا يمكن أن يحدث تحوُّل كليٌّ لأحد أكثر من الذي كان أكثر فساداً. إنني أسمِّي نفسي أفضلَ مثال لذلك.» ولا شك أن معادلة «التَّطهير» قد بلغت أعلى مؤشراتها وأصفاها بعد حجِّه، كما أشار إلى ذلك في أكثر من مناسبة. فالحجُّ يجبُّ ما قبله.

٣ ـ إنَّه كان أنموذج التَّقارب بين المسلمين والمسيحيِّين السود في أمريكا،

(١) Ibid, P ٢٦٩.

خاصَّة في المرحلة الأخيرة من حياته، وذلك بنضاله ضدَّ العنصريَّة، واستعلاء الرجل الأبيض، ومن أجل ذلك أمكن لكثير من الجماعات المختلفة ادِّعاء أحقِّيتها (بمالك)، وربطت علاقات نَسَبها الفكريَّة والأيديولوجيَّة بأفكاره.

٤ ـ إنَّه تميَّز بروح النَّقد الذاتي، والاعتراف بالخطأ، ومحاولة تصحيحه عاجلاً، حتى أنَّ بعض المتحاملين عليه وصفوه بتغيير مبادئه ومواقفه طبقاً للظروف، ورغبةً في اكتساب المؤيِّدين[١].. ولا شكَّ أنه تحامُل مغرضٌ خاصَّة إيرادُه في سياق رجوع الحاج مالك عن نظرته العنصريَّة ضدَّ البيض بعد رجوعه من الحج.

٥ ـ ومن المكاسب الدعويَّة في أثر رحلة الحج في فكر الحاج مالك وفي حركته، تقويته لجناح الحركات الإسلاميَّة السُّنيَّة في أمريكا، والتي كانت جماعة (أمَّة الإسلام) المنحرفة قد طغت على وجودها، وحجبت صورتها عن البروز على السطح الإسلاميِّ في الوسط الأمريكي، مثل جماعة دار الإسلام، وجماعة الأخوة الإسلاميَّة .Islamic Brotherhood Inc، وجماعة Islamic Party وكان ذلك سبباً لتأسيس بعض الحركات الإسلاميَّة صحيحة المنهج[٢].

٦ ـ حمله صورةً أنموذجيَّة طيِّبة للإسلام في الوسط الأمريكي خاصَّة،

---

(١) Houston A. Baker Jr, The Black Public Sphere, P ٤٤.

(٢) جماعة (دار الإسلام) أسسها مجموعة من الشباب المسلمين في بروكلين عام ١٩٦٢، وكان أول إمام لها هو يحيى عبدالكريم.

ـ مسجد الأخوة الإسلاميَّة MIB أسسه الشيخ خالد أحمد توفيق في هارلم عام ١٩٦٧، وهو ممن أسلم على يدي مالك شباز، ودرس بالأزهر الشريف، والتزم بالمنهج الإسلامي الصحيح. توفي ١٩٨٨.

ـ Islamic Party: أسست عام ١٩٧١ على يد مظفر الدين حامد بواشنطن العاصمة، أسلم على يدي الحاج مالك شباز بعد انفصاله عن (أمة الإسلام). وسافر إلى البلاد العربية والإسلامية. تأثر بدعوة الشهيد حسن البنا، والشيخ المودودي.

والعالمي عامَّة، وذلك بدعوته إلى السَّلام العالمي بين الأديان، والأجناس، وتصحيحه لصورة الإسلام المشوَّهة لدى الغرب في الإعلام، وفي ممارسة بعض الحركات الإسلاميَّة المنحرفة، وقد كان الحاج مالك ـ مِن قَبلُ ـ أحدَ الممثِّلين الكبار في هذه الحملة التشويهيَّة للإسلام في المخيلة الأمريكيَّة بفعل تعاليم قائده إليجا المغلوطة، غير أنه وُفِّق في إتباع السيِّئة الحسنة إن شاء الله.

٧ ـ إنَّه أعاد الأمل والثِّقة إلى المسلمين المهاجرين من الدُّول العربيَّة والدُّول الإسلاميَّة في الشرق الأوسط وآسيا، وطلبة الجامعات المسلمين؛ فالتفَّ حوله بعضهم قبل مقتله، كما أسَّسوا منظمات إسلاميَّة بعد مماته لدعوة الأمريكيِّين، وتصحيح العطب الذي أحدثته جماعاتٌ منحرفة باسم الإسلام.

٨ ـ كونُه «جرس التَّنبيه» الذي أيقظ في صفِّ جماعة «أمَّة الإسلام» الوعي لمراجعة فلسفتها وعقيدتها الإسلاميَّة. ولعل ذلك ما سهَّل لخَلِف إليجا محمد ابنِه وارث الدِّين محمد حملته التصحيحيَّة لعقيدة الجماعة وممارساتها.

ثانياً: تأثير الحاج مالك شباز الأيديولوجي

إنَّ أول مظهر من مظاهر تأثير الحاج مالك ـ محلياً وعالمياً ـ يمكن أن يُلمَس في الصبغة الحركيَّة الواضحة في حياته، حيث لم يترك مدوَّنات فكريَّة، وإنما كان كلُّ حياته تطبيقاً عملياً حياً لفكرته. وعلى الرَّغم من انفصاله عن جماعة (أمة الإسلام) قبل وفاته، وتأسيسه لتنظيم خاص، فإنَّ تأثير مالك على الأفراد والجماعات الدينيَّة والسياسيَّة ظلَّ واضح المعالم في تفكير أولئك الأفراد وسياسات الجماعات.

وإذا كان (مالك) قد لقي إعراضاً من بعض الجماعات القوميَّة بين السود، بسبب دعوته الإسلاميَّة، أو بدعوته إلى التعايش السِّلمي بين السُّود والبيض، أو الجماعات الإسلاميَّة لسبب أو لآخر.. فإن مقتله كان سبباً لتعيد تلك

الجماعات نظرتها في دعوة مالك، وتقيِّم أيديولوجيَّته في ضوء الأسباب الغامضة في اغتياله، وفي هويَّة قاتليه. وقد أدَّى ذلك بأولئك إلى ترديد شعارات مالك في المناداة بالتحرير الأفريقيِّ، والشُّعور بالكرامة، والاعتزاز بالذَّات. ومن الحركات الجديرة بالذّكر في هذا الصَّدد، منظمة الكونجرس للمساواة العرقيَّة (CORE)، واللجنة التَّنسيقيَّة السلمية للطلبة (SNCC)، فقد تبنت هاتان الجماعتان دعوة مالك إلى الاعتزاز العرقي، وبناء السُّود لمؤسَّساتهم الخاصَّة، وتشكيلهم قوَّة دفاعيَّة لأنفسهم.

ومن العوامل المباشرة في تأثير أفكار مالك في الجيل اللاحق نشر سيرة حياته عام (١٩٦٩) التي كتبها مع الكاتب المشهور أليكس هالي، صاحب رواية «الجذور»؛ فأصبح هذا الكتاب من أكثر الكتب رواجاً، كما أصبح «دستوراً» فكرياً لحزب «النَّمر الأسوَد Black Panther» المؤسَّس عام ١٩٦٦، لتأكيد إمكانيَّة تحويل المجرمين السابقين إلى مصلحين اجتماعيِّين، وثوريِّين مثاليِّين. ونُشِرت كذلك خُطبُه ومحادثاته الإذاعيَّة والتلفزيونيَّة التي غدت مجال دراسات كثيرة، والتي وجَّهت المسار الفكري الحركيَّ لمعظم التجمُّعات الشبابيَّة.

وبحلول حقبة الثمانينيات، وضمور معظم الحركات القوميَّة بين الأمريكيين السُّود، وتخفيف حدَّة المطالبة بحقوق السُّود، والدعوات الاستقلاليَّة التي نجحت هنا وهناك في أفريقيا وفي غيرها، فإنَّ «شبح» مالك ما زال مستعصياً على المحو والنسيان. بزغ من جديد في الفِرق الغنائيَّة لموسيقى الرُّوب، وفي أروقة الجامعات والمعاهد، خاصَّة حين يطرأ بعض المشاحنات بين السُّود والشُّرطة البيض؛ وتطفو المشكلة العرقيَّة والعنصريَّة، فيهرع الشّباب إلى شعارات مالك وأقواله المأثورة، بوصفها أسلحةً فكريَّة

يغرون بها السلطات الحكوميَّة، ويهاجمون بها معارضيهم، مما يدلُّ على أنَّ أفكار مالك ومُثُل حياته القصيرة، ما زالت جزءاً أساسياً في النّسيج الأيديولوجي للشباب، وما زال سلاحاً ماضياً يلوِّحون به في وجه الخصوم؛ لتأكيد الذّات، وكسب المعارك.

وقد بلغ الحماس (الشكلي غير الواعي) لمالك شباز ذروته في أواخر الثمانينيات والتِّسعينيات حين أصدر الهوليود فيلماً سينمائياً عن حياته (١٩٩٢) بإخراج Spike Lee، فأفرز ذلك جيلاً من الشباب المتحمِّسة لمالك، أطلق عليه بعضهم مسمَّى «الهوس المالكومي Malcolmania» أو جيل «X» الذي يتكالب على كلِّ بضاعة تحمل رمز «X» أو اسم مالكولم أو صورته، من قبَّعات، وقمصان، ونظارات شمسيَّة، وساعات، ويحرص على المظاهر الشكليَّة المميزة لمالك، مثل طريقة تصفيفه لشعره، وعادته في الجلوس أو الوقوف لإلقاء الخطب... تُرى أيكون ذلك صرفاً للشَّباب عن فكر مالك كما كان وضعُ صورته على طوابع بريديَّة عام ١٩٩٧م، في رأي بعض المسلمين، صرفاً للمطالبين بالكشف عن تقارير مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، عن مالك وملابسات اغتياله[١]؟

ملاحظة ختاميَّة

بقي أن نولي أمراً بالغ الأهميَّة ألا وهو حسن الوفادة والرِّفادة التي عُرِف بها أهل مكة، وشعب الحرَمين الشَّريفين، وأثرها البالغ في تفهُّم (مالك) لمفهوم الأخوَّة الإسلاميَّة، فلولا حسن الضِّيافة والحفاوة البالغة التي شُدِهَ بها الحاج مالك شباز منذ أن وطئت قدماه الأراضي المقدَّسة لما التفت مالك إلى ما

(١) ينظر مناقشة جادة لهذه القضية في كتاب: Clayborne Carson, Malcolm X: The FBI . files.

تلاها من المظاهر الأخرى، كلُّ ذلك قد كان الزِّناد الذي أشعل في نفس مالك التَّيقُظ لتقدير جميع مظاهر الأخوَّة الإسلاميَّة، والمساواة بين المؤمنين بصرف النظر عن ألوانهم وألسنتهم. وقد أكَّد مالك في سيرة حياته على تلك الجوانب، واعترف بالجميل.

رسالة من مكّة

نظراً لأهميَّة الرِّسالة التي بعث بها الحاج مالك شباز من مكة إلى أصحابه في الولايات المتحدة، فقد أحببنا ترجمتها كاملةً؛ حتى تنطق بنفسها عن نفسها، وتجلي الأثر الإيمانيَّ والرُّؤية الإنسانيَّة التي أحدثته تلك الرِّحلة، والتَّجارب المعدودة في حياة مالك.

إن أوَّل ما يستلفتنا في هذا الخطاب عنوانه حيث اختفى اسم الكاتب من العنوان، فلم يقل مثلاً: رسالة من الحاج مالك في مكة.. ولعلَّ تواري الكاتب في العنوان إيماءةٌ لطيفة ـ ولو بأسلوب غير شعوريٍّ ـ أنَّ ما يكتبه أكبر من أن ينسبه إلى نفسه، وإنَّما هو من وحي مكَّة، وأنَّ حقائق الحياة هي التي أملت على الكاتب هذا الخطاب.

يقول:

«إنَّني لم أشهد ـ في أرض ـ مثل هذه الضِّيافة الصادقة، والاحتفاء البالغ الممزوج بالأخوَّة الحقَّة مثلما هو مطبَّق بين الناس من جميع الألوان والأجناس في هذه الأرض المقدّسة بلدِ إبراهيم، ومحمد وجميع الرُّسل(عليهم السلام). لقد غدوت منذ الأسبوع الماضي، أخرَس أمام صُور الكرامة المحاطة بي من قِبَل أناس من كلِّ لون.

لقد أكرمني الله بزيارة بلدة مكَّة المقدسة؛ فطفتُ الأشواط السَّبعة حول الكعبة بقيادة الشاب المطوف محمد، وشربتُ من ماء زمزم، وسعيتُ سبع

مرات بين الصَّفا والمروة، وصليت في بلدة منى القديمة، ودعوتُ الله على جبل عرفات.

كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج من كلِّ أرجاء العالَم، كانوا من جميع الألوان: من ذوي العيون الزَّرقاء إلى ذوي البشرة السَّوداء الأفارقة، لكنَّهم كانوا يؤدُّون شعيرةً واحدةً مظهرين روح الوحدة والأخوة التي لم أعهدها في أمريكا. وقد كانت خبرتي في أمريكا قد قادتني ـ خطأً ـ إلى الاعتقاد أنَّ مثل هذه الرُّوح الأخويّة مستحيلة التحقُّق بين الأبيض وغير الأبيض.

وعليه، فإنَّ أمريكا بحاجة إلى فهم الإسلام؛ لأنَّه الدين الوحيد الذي يمحو من المجتمع الأمريكي المشكلة القوميَّة، فمن خلال أسفاري في العالَم الإسلامي، جالستُ وحادَثت، بل آكلتُ أناساً لو كانوا في أمريكا لعُدُّوا من البيض، لكنَّ تصرُّف «الأبيض» قد انتُزِع من قلوبهم بفعل الإسلام. إنَّني لم أشهدْ مثل هذه من قبل الأخوَّة الصادقة والحقَّة حاضرةً يطبِّقها الجميع دون اعتبار للَون.

ولعلَّكم تُصدَمون بتلك الكلمات منِّي، لكن الذي شاهدتُ في هذه الحِجَّة قد أرغمني على إعادة ترتيب قواعد تفكيري السَّابقة، وعلى نبذ بعض استنتاجاتي القديمة، وبالطَّبع، فإن ذلك لم يكن صعباً علي. وعلاوةً على عزيمتي الصّادقة، فإنَّني ظَلِلتُ دوماً رجلاً يواجه الحقائق، ويقبل الواقع الحياتيَّ بوصفه خبرةً ومعرفة جديدة.

خلال الأيام الأحدَ عشر السَّابقة في العالَم الإسلامي شاطرتُ إخواني المسلمين الأكل من آنية واحدة، والشُّرب من كوب واحد، والنَّوم معهم على فَرش واحد، ممَّن هم من ذوي العيون الأشدَّ زرقاً، والشُّعور الأشد شقراً، والبشرة الأنصع بياضاً. ومن خلال كلام «البيض» وتصرُّفاتهم، شعرتُ

بالإخلاص نفسِه الذي شعرتُ به بين المسلمين الأفارقة في نيجيريا والسُّودان وغانا.

حقاً، لقد كنا إخوةً؛ لأنَّ إيمانهم بإله واحد قد نزع من قلوبهم «الأبيض»، ونزع «الأبيض» من تصرُّفاتهم، كما نزع «الأبيض» من أفكارهم. وقد تبيَّن لي من ذلك أنَّ الأمريكيِّين البيض إذا كان بإمكانهم قبول وحدانيَّة الله، فمن الأجدر ـ بطبيعة الحال ـ قبول وحدة الجنس البشريِّ، وترك تقييم الناس، على أساس «الاختلاف» في اللَّون. وبتضاعُف العنصريَّة التي تنخر في أمريكا مثل سرطان مستعص على العلاج، فقد آن الأوان لأمريكا أن تنجو بنفسها من هذا الدَّمار المحقَّق، ذلك الدَّمار الذي حلَّ بالألمان بفعل العنصريَّة.

إنَّ كلَّ ساعة أقضيها هنا في الأرض المقدَّسة تخوِّلني روحيَّة واسعة للنَّظر فيما يحدث في أمريكا بين السُّود والبيض. فالزِّنجي الأمريكي غير ملوم في حقده العرقيِّ؛ لأنَّ تصرُّفه ردَّة فعل لأربعمائة عام من عنصريَّة الأمريكيِّين البيض. وبما أن العنصريَّة تجرُّ أمريكا إلى طريق الانتحار، فإنَّني أؤمِن ـ اعتماداً على تجاربي الخاصَّة مع الأمريكيِّين ـ أنَّ الجيل الجديد من البيض، في المعاهد والجامعات، سوف يرى الكتابات الجدرانيَّة، وسوف ينصرف كثيرٌ من تلك الكتابات إلى الحلِّ الرُّوحي الحق، الطريق الأوْحد الأخير لأمريكا لتفادي الدَّمار الذي تحول إليه العنصريَّة لا محالة.

إنَّني لم أحظَ قط بحفاوة مثل هذه، ولم أشعر بمثل هذا التّواضع، فمَن الذي كان يتنبَّأ بمثل هذا الإكرام في حقِّ زنجيٍّ أمريكي؟ ومنذ ليال معدودة فحسب، كان في خدمتي هذا الرَّجل الذي يمكن تسميته بـ(أبيض) في أمريكا، وهو دبلوماسيٌّ في الأمم المتحدة، سفير، نديم الملوك.. وجعل تحت تصرُّفي جناحه في القصر.. حقاً، إنَّني لم أحلم قطُّ بأن أحظى بمثل هذا الإكرام، إكرامٌ يُخصُّ به الملوك في أمريكا فحسب، لا رجل زنجيٌّ.

حمداً وشكراً لله ربّ العالمين».

الحاج مالك الشباز (مالكولم إكس)